379

HARLEQUIN

روايات أحلام

من ينقذها ؟

كارول مارينيللي

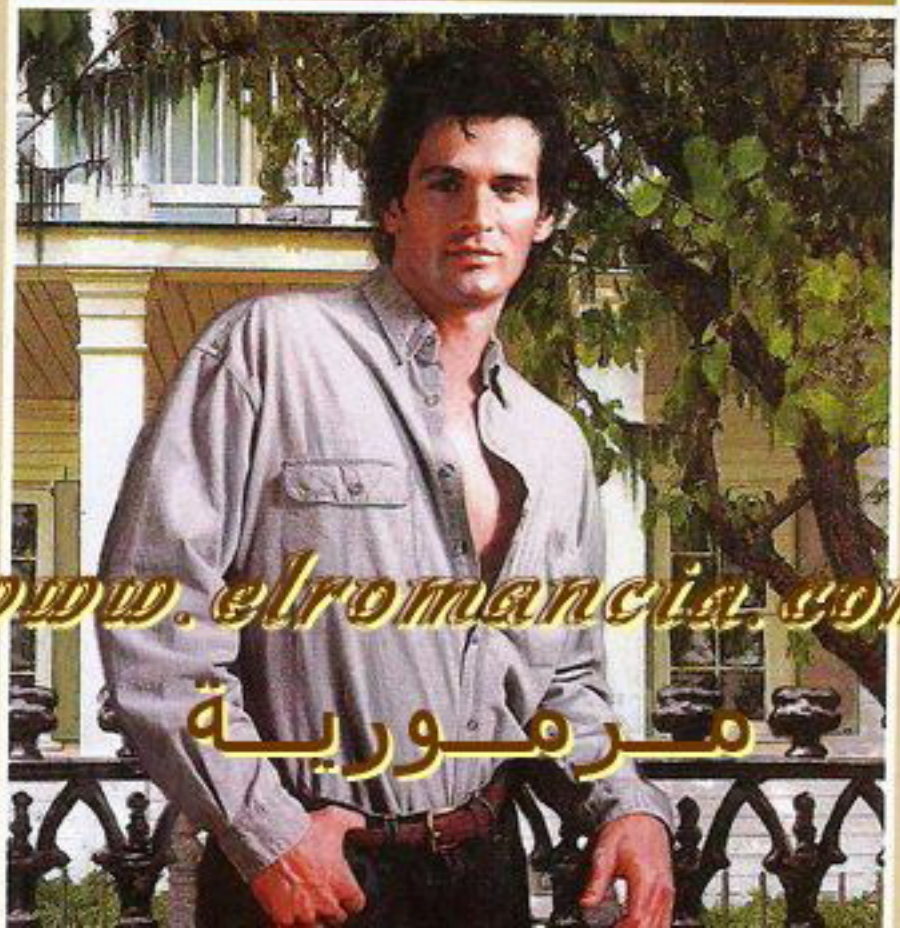

www.elromancia.com
مرمورية

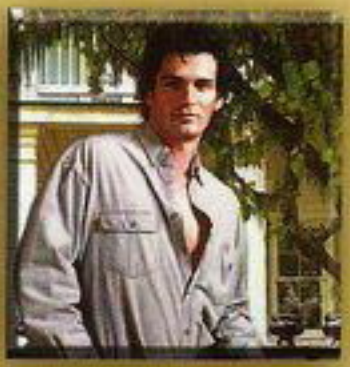

من ينقذها ؟

فتحت فيليستى عينيها محاولة معرفة مكانها و آلاف .
الأسئلة تصخب في رأسها. جالت بعينيها البنيتين في أنحاء الغرفة تبحث عن دليل يكشف لها عن سبب تواجدها في غرفة مفروشة بأناقة . وفي سرير واسع مع رجل .
وصفعها السؤال فجأة : ماذا تفعل بحق الله مع لوكا سانتانو ؟
شعرت بالبرد لمجرد ذكر هذا الاسم . واجتاحتها موجة من الحقد لم تعرف لها مثيلا ... حقد تجاه رجل غير بتوقيع منه مجرى حياة عائلتها إلى الأبد ...
لكن لوكا هو الوحيد القادر على إنقاذها من نفسها . هو الوحيد الذي يملك الجواب على اسئلتها كلها ...
فماذا ستختار ؟ الهروب أو النار ؟

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-333-7

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The Italian's Marriage Bargain
First published in Great Britain 2004
Harlequin Mills & Boon Limited
© Carol marinelli 2004
Translation © Dar El-Farasha - 2006
ISBN 9953 - 15 - 333 - 7

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

١ ـ صباح خطر

كان وسيماً . . .

فتحت فيليسيتي عينيها محاولةً معرفة مكانها وآلاف الأسئلة تصخب في رأسها . جالت بعينيها البنيتين في أنحاء الغرفة تبحث عن علامة، عن دليل يكشف لها عن سبب تواجدها في غرفة مفروشة بأناقة، وفي سرير واسع، تحت ثقل ذراع رجل، وصعقها السؤال فجأة: ماذا تفعل بحق الله بين ذراعي لوكا سانتانو؟

سانتانو.

شعرت بالبرد لمجرّد ذكر هذا الاسم، واجتاحتها موجة من الحقد لم تعرف لها مثيلاً . حقد تجاه رجل غيّر بتوقيع واحد منه مجرى حياة عائلتها إلى الأبد.

ولكن وللحظة، وقبل أن تستيقظ تماماً، وتبدأ الأسئلة التي تدور في رأسها تطالب بأجوبة، نظرت فيليسيتي ناحية الوسادة، حيث الرجل الذي يشاركها سريرها، وسمحت لنفسها بأن تنظر إلى الرجل لثانية بإعجاب. بأن تنظر إلى هذا الرجل ذي الملامح المثالية الرائعة، وعجزت عن التصديق بأنه يمكن لشخص بهذا الكمال أن يسبب مقداراً كبيراً من الحزن والأسى.

إنه وسيم!

بدءاً من شعره الأسود القاتم الذي يبرز وجهه الرائع، وصولاً إلى عينيه وأهدابه الطويلة، وفمه العريض المثير.

تنهدت فيليسيتي تنهيدة صغيرة وهي تنظر إلى طول جسمه. إنه طويل القامة. لا بد أنه كان ينتعل حذاء إيطالياً غالي الثمن يتناسب والبذلة الداكنة اللون المرميَّة بالقرب من السرير. تجنّبت فيليسيتي النظر إلى وسطه وانتقلت مباشرة إلى القميص القطني الأبيض الذي يرتديه.

عرفت من آثار الماسكرة التي رأتها على وجه الوسادة الأبيض أنها كانت تبكي. والأسوأ من هذا كلّه هو أنها كانت تبكي بين ذراعي لوكا.

صُدمت لِما أدركته لتوّها. فهي لا تبكي أبداً، أبداً! ولا تخفض أسلحتها بهذه الطريقة أبداً. حاولت التفكير في مرّة واحدة بكت فيها لكنها عجزت عن ذلك. حتى عندما توفي جوزيف، كتمت مشاعرها في قلبها ورفضت التعبير عن حزنها وألمها. ضج رأسها بالذكريات الحزينة فعمدت إلى وضع حدّ لها، لا بهدف إخفاء ذكريات الأمس وحسب، بل بهدف إخفاء ذكريات السنوات القليلة الماضية أيضاً، وعادت لتجلس في أمان وهي لا تفكّر إلا بالأمور الجميلة.

لكن الصور ما لبثت أن عادت تطاردها، صوراً لم ترد رؤيتها تفضّل نسيانها إلى الأبد. وسرعان ما عادت إلى الواقع الأليم الذي قطع حبل أفكارها.

- صباح الخير.

عرفت فيليسيتي صوته من دون أن يتكلّم. فهو يلفظ الحروف بتانٍ وبفم واسع ممّا جعل هاتين الكلمتين البسيطتين تصبحان مغريتين للغاية. حوّلت انتباهها إلى الأعلى لتجد نفسها تحدّق مباشرة إلى هاتين العينين الزرقاوين، فاحمرّت وجنتاها خجلاً. وتمنّت لو أنها سخّرت الوقت الذي استيقظت فيه قبله لتحاول الإجابة عن الأسئلة التي قد يطرحها عليها.

- صباح الخير.

أدركت فيليسيتي أن ردّها لم ينمّ عن الكثير من الذكاء ولم يأتِ مثيراً كما جاءت كلمات لوكا خاصة بسبب لكنتها الأسترالية الغريبة. سحب

يده من تحت رأسها وتمطّى بكسل وتثاءب كاشفاً عن أسنانه الناصعة البياض. استيقظ بارتياح كما لو أنّه معتاد على الاستيقاظ كلّ صباح وبقربه امرأة غريبة.

وفكّرت فيليسيتي وهو ينظر إليها بعينيه الزرقاوين بأنه حتماً معتاد على هذا. فبمظهر كمظهره و... وأجالت فيليسيتي بنظرها في أنحاء الغرفة مجدّداً لتتأكد من أنها لا تتخيّل. رأت المفروشات المصنوعة من خشب الماهوغاني، والآنية المصنوعة من الكريستال، والستائر الذهبية العريضة. كلّ ما حولها يدلّ على الثراء ويؤكّد لها أن الرجل المستلقي بقربها قادر على الحصول على أية امرأة يريدها.

وللحظة مرعبة لم تعرف فيليسيتي إن كان اسمها قد أضيف إلى لائحته الطويلة أو لا.

- أظنكِ ترغبين بالحصول على بعض القهوة.

ولم ينتظر ردّها بل تناول الهاتف وطلب باللغة الإيطالية القهوة، إلاّ أن كلامه بدا أطول من مجرّد طلب قهوة. وأدركت فيليسيتي عندها أنهما في فندق.

وليس أي فندق بحسب ما تذكر، بل في فندق من فنادق لوكا سانتانو الفخمة.

والسؤال الذي يُطرح الآن هو أيّ فندق هذا؟

سألته وهو يغلق سمّاعة الهاتف: «أظننا ما زلنا في أستراليا؟ فأنا لا أعيش كابوساً ما وقد وجدت نفسي في إيطاليا، صح؟».

ضحك، ضحك من كلّ قلبه، وتفاجأت فيليسيتي لأنها ضحكت هي أيضاً.

- نعم، يا فيليس ما زلنا في استراليا. لقد تحدّثت منذ قليل بالإيطالية لأنني كنت أتكلم مع ريكو، وهو ابن منطقتي في موسيرالو. ثمة الكثير من الإيطاليين ضمن فريق عملي.

- ليذكّروك ببلدك الأم؟

ضحك مجدداً.

- لا، تملك عائلتي الكثير من الأصدقاء و....

انتظرت فيما توقف عن الكلام، وابتسمت لِما قاله:

- والكثير من الأشخاص التائهين في الدنيا، والذين يقرّرون أن يقصدوا لوكا بحثاً عن عمل.

إنها لا تزال في البلد نفسه على الأقل، ولكن الغرفة التي حجزاها هي وماثيو صغيرة مقارنة بهذه طبعاً.

ماثيو!

انتابتها موجة من الذعر وقد أدركت فظاعة الموقف الذي وجدت نفسها فيه.

قال لوكا وهو غير منتبه لذعرها:

- وطلبت أيضاً بعض الماء البارد، أظنّك تشعرين بالعطش.

إنه محقّ فهي تشعر بأن حلقها جاف جداً، ولكنه لا يزعجها كثيراً إذا قارنته بالألم الحاد الذي تشعر به في رأسها والذي يزداد مع أقلّ حركة منها.

- شكراً لك.

استقامت فيليسيتي وشدّت الملاءة حولها.

- شكراً لك.

قالت فيليسيتي مجدداً وهي تسعل آملة أن يبدأ عقلها بالعمل، ويبلغها عمّا تفعله ها هنا.

- هل أنتِ بخير؟

بدا قلقاً وقد قطّب جبينه واقترب ينظر إليها عن كثب. غاب اللون عن وجهها المدوّر وهي تجلس وتضع يديها الصغيرتين على صدغيها.

- في الواقع لا.

قالت فيليسيتي هذا وأخذت نفساً عميقاً، وتمنّت لو يتوقف هذا الدوار الفظيع الذي تشعر به وتتمكّن من استجماع أفكارها.

- في الواقع لا أشعر بأنني على ما يرام.

- أنا واثق من هذا.

لقد زالت نبرة القلق من صوته لتحلّ محلّها البرودة.

- اسمع، أنا آسفة.

خرجت الكلمات من فمها من دون تركيز وأردفت:

- لا أعرف ما جرى، فأنا أنزل هنا مع....

وتردّدت وهي غير واثقة من صفة ماثيو:

- صديقي، كنّا نحضر حفلة توزيع الجوائز....

كان يحدّق إليها وقد رفع حاجبه متسائلاً، وهي تجاهد للخروج بعذر ما يخلّصها من هذا الوضع ويحفظ كرامتها، وكيف ستتمكّن من العودة إلى غرفة ماثيو وتقديم عذر مقنع يحول دون معرفته ما جرى فعلياً.

- أظنني أعاني تسمّماً من الطعام، أو انفلونزا، أو ما شابه. لا بد أنني اقترفت غلطة ما ودخلت الغرفة الخطأ.

تقطّع صوتها ورأته يرفع حاجبه الآخر، فاستسلمت.

تمتمت وهي عاجزة عن النظر مباشرة إلى عينيه:

- أعاني من آثار الكحول، أليس كذلك؟

- يمكنك قول هذا.

أومأ وعرفت أنه يسخر منها ويستمتع بشعورها بالإهانة. قرّرت فيليسيتي أنها لن تتحمّل المزيد. لفّت الملاءة حول نفسها وتجاهلت الصداع الأليم الذي يُفقدها توازنها ووقفت. ما من فائدة في إضاعة الوقت بتقديم الأعذار فما جرى قد جرى، وبغض النظر عن المُصيبة التي أوقعت نفسها بها ليلة أمس، فالبقاء هنا ومشاهدته يسخر منها لن يحلّ شيئاً.

- عليّ أن أرحل.

وتمنّت فيليسيتي لو أنها واحدة من تلك النساء المنمّقات اللواتي تراهن في الأفلام السينمائية. وكم تمنّت لو تستطيع أن ترسم على شفتيها ابتسامة ساخرة وتغادر وهي ترسل قبلة في الهواء. إلاّ أنّ الاستيقاظ في غرفة نوم رجل غريب، أمر غريب ناهيك عن أنها قد فقدت رباطة جأشها وهدوئها المعتادين.

أوشكت أن تبكي، لكنها منعت نفسها من ذلك. فبغضّ النظر عمّا جرى ليلة أمس ودفعها إلى البكاء بين ذراعي لوكاس، المشهد نفسه لن يتكرّر.

تمالكت نفسها ونظرت في أرجاء الغرفة تبحث عن ملابسها. رأت حذاءها وحقيبة يدها. كانت تشدّ الملاءة إليها كثيراً بحيث أنها باتت تفصّل ملامح جسمها إلاّ أنها لم تكترث. عليها أن تعود إلى ماثيو وتأمل أن لا يلاحظ عودتها مع الفجر إلى الغرفة.

- إن كنتِ تبحثين عن فستانك فسيحضرونه بعد قليل.

لم تعد تستطيع التحمّل. تنهّدت يائسة وجلست على طرف السرير ووضعت رأسها بين يديها. سقط شعرها الأشقر كستارة من فوق كتفيها نزولاً إلى وجهها، وللحظة اختبأت خلف هذه الستارة الذهبية. وراحت تفكّر كيف أقدمت، هي فيليسيتي كونلون، المرأة المنظمة والتي تحكم السيطرة على نفسها دوماً، على ارتكاب أمر بهذه الفظاعة.

لقد خططت لليلة أمس بأدقّ تفاصيلها. وقد أقدمت على هذا العمل تماماً كغيره من الأعمال بحزم وبعيداً عن العواطف، تنظر إلى الاتجاهات كلّها، وتدقّق مراراً وتكراراً في التفاصيل إلى أن تأكّدت من تغطيتها جوانب الموضوع كافة.

كانت تعمل ليلة أمس.

- أنا لم أدخل إلى هنا سهواً أليس كذلك؟

تمتمت هذا السؤال وهي تحاول استعادة الذكريات ومعرفة ما جرى،

فأردفت:

- لقد حملتني.

- هذا صحيح.

تابعت فيليسيتي:

- كنت ستنام على الكنبة، لم أرد النزول إلى الأسفل.

قاطعها لوكا:

- لتكوني مع صديقك. أنت محقة مجدداً، لقد وافقت على أن تنامي هنا على سريري وأخبرتك أنني سأنام على الكنبة.

هذا أمر منطقي. لقد بدأت تحل لغز ليلة أمس، ولكن ما زالت الكثير من الأمور غامضة.

- إذاً لِمَ..؟

لاحظ توترها وتورّد خدّيها وحاول ألا يبتسم.

سألته:

- إذاً لِمَ استيقظت بين ذراعيك؟ لِمَ لم تنم على الكنبة؟

- طلبتَ مني أن أشاركك السرير.

جاء صوت لوكاس بطيئاً متوازناً، يقيس كل كلمة قبل أن ينطق بها.

- رفضت أولاً نظراً لـ....

وسعل ليزيد من إحراجها:

- نظراً لكونك كنت ثملة وتفتقرين إلى الجاذبية.

- وبالرغم من ذلك أتيت.

حاولت تجريده من المصداقية والسيطرة على هذا الوضع الصعب.

- لقد ألحيّت عليّ، ألحيت كثيراً.

- أحقاً؟

- في الواقع، لقد أصبت بالهستيريا، وعوضاً عن صفعك، استلقيت بقربك.

- آه.

إنه يقول الحقيقة. وحتى ولو أنها شكّت في صدق كلامه، إلاّ أنها عادت وتذكرت بعض ما جرى. لوكا يرجوها لتلزم الهدوء، ويسكب لها كوب ماء، ويقف بقربها كواحد من أقربائها ويصرّ على أن تشرب الماء، ثمّ يتناول مناديل ورقية ويمسح دموعها الممزوجة بالماسكارة السوداء... وفي خضمّ يأسها وانزعاجها، ظهرت صورة أكثر إزعاجاً. لوكا يضمّها بين ذراعيه، لا بلطف بل بشدة ويهدىء من روعها مراراً وتكراراً.

تنهدت فيليسيتي، أوشكت أن تشعر باليد التي واستها ليلة أمس على رقبتها، تربّت عليها لتزيل الضغط والألم، وتنتقل إلى كتفها تمسدُه وتعاملها كما يُعامل الولد الذي عانى من كابوس مزعج.

لم تكن ردّة الفعل التي استعرت في جسمها ذات طبيعة صبيانية بريئة عندما لمسها. جلست فيليسيتي محتارة، خجلة، وتشعر بإذلال ما بعده إذلال، ولكنّها أدركت بأن عليها طرح هذا السؤال عليه. حتى ولو شكل ردّه الضربة القاضية التي ستتلقّاها قبل أن تعود إلى غرفتها وتحاول إصلاح بعض ما أفسدته ليلة أمس.

- هل...

وابتلعت ريقها وتنحنحت، ثم نظرت إلى عينيه وكتفيه، واستعدّت لتواجه العالم، أو بالأحرى ضميرها. وسألته:

- هل فعلنا شيئاً؟

- لقد تحدّثنا، أو بالأحرى أنتِ تكلّمت وأنا أصغيت.

- أعتذر إن أضجرتك.

لم يبادلها الابتسامة، ولم يبذل أي جهد ليقدّم المزيد من الشرح، فاضطرّت إلى متابعة هذا الحوار المخزي بمفردها.

- إن لم نفعل شيئاً سوى الكلام، فكيف انتهى الأمر بي من دون فستان؟

- عندما أتينا إلى الغرفة طلبت لك بعض القهوة المرّة، وأملت أن تجعلك تستعيدين وعيك، وكانت لتفعل لو لم توقعي الفنجان عليك. فستانك في المصبغة.

لقد أراحها من عذابها، ولو أنها نظرت إليه لرأت ابتسامة لطيفة ترتسم على شفتيه وتضيء ملامحه.

- لم يحدث شيء بيننا إن كان هذا ما يشغل بالكِ، ولكن وبما أنك تطرّقت إلى الموضوع....

- لم أفعل.

دافعت فيليسيتي عن نفسها ولكن لوكا تجاهل كلامها طبعاً.

وتابع بصوته العميق متجاهلاً احتجاجاتها وكرّر:

- وبما أنّك تطرّقت إلى الموضوع، وتساءلت إن كان قد حدث شيء بيننا أو لا، فاسمحي لي بأن أخبرك بأنك ما كنتِ لتنسي ذلك.

نظرت إليه من تحت أهدابها.

- شكراً.

- علام؟

ابتلعت فيليسيتي ريقها بصعوبة، ولم تستطع إرغام نفسها على النظر إليه.

- لأنك لم تستغلّ الوضع.

- صدقيني لم يكن الأمر صعباً.

- إذاً لم نفعل أي شيء؟

كرّرت فيليسيتي السؤال لتتأكّد وقد احمرّت وجنتاها الآن.

- أؤكد لكِ هذا، فأنا أفضّل أن تكون النساء برفقتي صاحيات.

قرّرت فيليسيتي تجاهل هذه الملاحظة الأخيرة، فرفّت بعينيها أكثر من مرة، وشعرت بالارتياح يسري في عروقها.

حسناً، لم تنتهِ الأمور بعد.

فالبقاء طيلة الليل في الخارج أمر لن يسهل على ماثيو السماح به، وبالطبع يتعيّن عليها عدم ذكر اسم الشخص الذي استيقظت لتجد نفسها في سريره. فلوكا هو شريك ماثيو في العمل. ستحضر أغراضها وتخرج من هنا على أمل ألا يكون قد حصل أي ضرر يذكر.

جلّست كتفيها ورفعت شعرها بعيداً عن عينيها، وأجبرت نفسها على الابتسام عندما رأت لوكا يحدق إليها وحاولت إضافة بعض الفكاهة على هذا الوضع الغريب.

- آه!

لم يبتسم بل تدحرج على جنبه واستند إلى كوعه وتابع النظر إليها ثم قال بلهجة ساخرة:

- آه!

قالت فيليسيتي بنبرة تنمّ عن ثقة أكبر بالنفس:

- آسفة.. لا أدري ما أصابني فأنا لم أشرب الا العصير.

قال لها: «أواثقة أنت من ذلك؟».

وتنهدت فيليسيتي تنهيدة صغيرة: «كل الثقة».

- لم أقصد أنك شربت شيئاً غير العصير وأنت مدركة ذلك.

أربكتها كلماته، فعبست وهو يتابع، وتساءلت إن كانت قد أساءت الفهم، سألها:

- ماذا شربت البارحة بالتحديد؟

- كوبان من عصير الليمون على ما أذكر.

بدأت تتحدّث بشكل غير مترابط، وراحت الكلمات تخرج من فمها بسرعة هائلة. وتمنّت لو يبتسم لوكا، أو يشيح بنظره بعيداً، أو يتنهّد، أو يفعل أي شيء آخر عوضاً عن النظر إليها بتكبّر.

- من المؤكد أن الليمون لا يضرّ شاربه أبداً؟

وعندما فتحت فيليسيتي فمها لتجيب سبقها لوكا وعيناه لا تغادران

وجهها، وهو يراقب ردّة فعلها على كلماته.

- أما زلت لا تدركين بأنه قد تم التلاعب بكوب عصيرك؟

- هل تلاعبت أنت بالعصير؟

ذعرت وحاولت الوقوف، فرماها لوكا بنظرة احتقار ورفع يديه انزعاجاً وتمتم بالإيطالية كلاماً لم تفقه معناه، ولكنّها شعرت بأنه لم يكن مديحاً.

- ماثيو تلاعب به.

لم تتحمّل موجة الغضب التي استعرت في داخلها وملأت رأسها، فأغلقت عينيها وهي تكشف النقاب عن وجه آخر من شخصية ماثيو.

وتأكدت كم يستطيع ماثيو أن ينحط ليحقق مراده.

تابع لوكا الكلام، إلا أن فيليسيتي لم تصغِ إليه تماماً لانهماكها بسوء حكمها، قال:

- أخبرني طاقم الموظفين بأن شيئاً غريباً يحصل، قد تذكرين أنني كنت أجلس إلى الطاولة المجاورة لكما.

- نعم.

تنهدت وهزت رأسها، ولكنها عرفت بأنها لا تخدعه. فهي تذكر تماماً الجزء الأول من السهرة، وبالتأكد لا يمرّ شاب لاتيني الأصل وسيم يبلغ طوله ست أقدام من قربها من دون أن تلحظه، حتى ولو كانت برفقة ماثيو الجذاب. فهي لا تزال تذكر تماماً تلك النظرة التي تبادلاها ليلة أمس، ولكنها لن ترضي غرور لوكا بالاعتراف له بهذا.

- لقد طلبت عصير الليمون الخالي من أي اضافات أخرى والمدرج على اللائحة، في الواقع طلبت ثلاثة أكواب منه.

- نعم، ولكن كما قلت لك في السابق، لقد شربت الليمون ثم شربت عصير الفريز مع العشاء.

- ما حصلت عليه هو ثلاثة أكواب من العصير الملغوم بمادة مخدّرة.

فقد توجّه صديقك إلى المقصف كلما طلبت مشروباً وأخبر الساقي أنّك غيّرت رأيك. كما أنّه حرص على أن يتحدّث في كل مرّة إلى ساقٍ مختلف وعندما جاء يغيّر طلبك للمرة الرابعة، سمعه واحد من الساقين وعرف ما يجري.

مرّرت فيليسيتي يداً مرتجفة في شعرها، والحنق يتملّكها ليس بسبب ما فعله ماثيو فحسب، بل من نفسها أيضاً لأنها لم تدرك ما الذي يجري. وبدأ حنقها يأخذ منحى آخر الآن. أيقنت أن لوكا يستمتع بلعب دور صاحب الأخلاق السامية، ويفرض على ضيوفه طرق التصرّف، ويتدخل من دون أن يدعوه أحدهم ويلعب دور الفارس المغوار، لكنه يجهل الظروف، ولا يعرف مدى أهمية تلك الليلة بالنسبة لها، ولوالدها بشكل خاص. وتمنّت لو لم يتدخّل لوكا في الموضوع، وسمح لليلة بأن تأخذ منحاها السيء.

كان الأمر ليكون قد انتهى أقلّه.

- سأتحدث بجدية إلى ماثيو هذا الصباح. فإن كان ينوي أن يتصرّف بهذه الطريقة، فيستحسن به البحث عن وظيفة أخرى.

- أرجوك، لا.

فمن الضروري جداً ألا يتدخّل لوكا في هذا، وعليها إقناعه بذلك.

- لم يقصد هذا حقاً، فأنت تعرف كيف يتصرّف أحياناً.

- أجهل تماماً كيف يتصرّف ماثيو أحياناً، وكيف لي أن أعرف وقد التقيته مرتين أو ثلاث.

تنهّد لوكا ثمّ ما لبثت ملامحه أن قست عندما رأى سؤالاً يظهر في عيني لوسي:

- وهل قال لكِ ماثيو أي شيء مختلف؟

نعم، أخبرها ماثيو قصة مختلفة تمام الاختلاف. فبحسب روايته، يملك ماثيو خطاً ساخناً مباشراً مع لوكا. خطاً سيستعمله حتماً إن لم

تجاره. ولكن، سرعان ما أيقنت فيليسيتي أن هذه ليست بالمسألة الهامة. فهي لا تستطيع إغضاب ماثيو، والمخاطرة بتعريض والديها للخطر.

على لوكا أن يصدّقها.

بدأت فيليسيتي كلامها وقد زاد احمرار خديها مع كل كلمة غريبة تنطق بها:

- كنت ماثيو وأنا . . . .

أغلقت عينيها، وتمنت لو يضع لوكا حدّاً لهذا، لو يرفع يده ويخبرها بأنّه لا يود سماع التفاصيل ولا يحتاجها، فقد فهم الرسالة بشكل عام.

إلا أنه لم يتصرّف كما تمنّت، بل وقف مكانه وقد شدّ على شفتيه، وراح يحدق إليها وإلى انزعاجها من دون اكتراث.

نظرت إلى الأرض وحاولت استجماع قواها وهمست ما أملت أن يكون خاتمة لهذا الوضع المزعج.

- سنعقد خطوبتنا . . . .

بالكاد سمع صوتها، بل قل همسها وهي تحاول وضع حدّ لهذا الحوار الصعب. نظرت إليه خلسة فلاحظت الارتباك في عينيه، وسمعته يأخذ نفساً ويفتح فمه ليتكلّم، ثم يغيّر رأيه فيغلقه.

وتابعت فيليسيتي كلامها:

- ولهذا السبب كنت متوترة.

يبدو بأن لوكا يحاول حلّ لغز آخر خاص به. هز رأسه وفتح فمه مجدداً، ولكن هذه المرة خرجت الكلمات من فمه بنبرة مختلفة عن المألوف إذ بدا متردداً وحائراً في أمره.

- ولِمَ عساكِ تكونين متوترة؟ ولِمَ ترتعبين من شيء بهذه الروعة؟

هزّت فيليسيتي كتفيها وقالت:

- هذا ما جرى.

فهي لن تُطلع لوكا على التفاصيل الأخرى، وتخبره بأن ماثيو قد

أوضح لها نيته. لن يكون هناك مزيد من المقاومة منها أمام عتبة منزلها، والأعذار المتعددة. كان ماثيو ينوي المطالبة بما يظنه حقاً له.

وما من شيء تستطيع فعله لتغيير الواقع.

قرّرت بأنها قالت ما يكفي، فوقفت وأزاحت خصلة من شعرها إلى الخلف وقالت:

- فلنترك الأمور عند هذا الحدّ. هل تستطيع الاتصال بالمصبغة ليحضروا لي ثوبي، أودّ ارتداء ملابسي؟

وقفت لدقيقة من الوقت وعندما لم يبادر لوكا إلى الإمساك بالهاتف قالت:

- حسناً، إن كنت تنوي التصرّف بهذه الطريقة، فسأتصرّف على طريقتي.

وتناولت سماعة الهاتف وطلبت رقماً وهي تجهل تماماً أرقام الغرف.

- حسناً أتفهم شعورك بالانزعاج.

قال لوكا ملخصاً مناقشتهما كما لو أنّ الجزء الأخير من الحديث لم يجر. تردّدت فيليسيتي لبرهة وقد ضغطت على الرقم ٩ على سماعة الهاتف.

- ولكن لمَ أراد ماثيو أن يفقدك رشدك الليلة الماضية؟ فأي نوع من الرجال يودّ طلب يد امرأة ما للزواج إن كانت لن تذكر ذلك في صباح اليوم التالي؟

ضحكت بصوت مرتفع وراقبها لوكا وقد استقامت كتفيها وارتجفت يدها الممسكة بالهاتف. واضطر للسيطرة على نفسه وهو يتخيلها تعانقه.

- رجل مصمّم للغاية.

أثارت نبرة الهزيمة في صوتها شيئاً ما في داخله. وفجأة تحوّلت المشاعر التي يكنّها نحو ذلك الرجل المدعو ماثيو من الانزعاج إلى القرف، ومن الاحتقار إلى الحنق. ولكن لم يظهر شعوره هذا في نبرة صوته. فقد أدرك أن كلمة واحدة في غير محلّها كفيلة بإعادتها إلى موقع الدفاع، وجعلها

تخرج من الغرفة، ومن حياته أيضاً.

لم يردها أن تذهب.

وقد صدم لإدراكه هذا. فقد شعر ليلة أمس بالقلق لأنه قد يتم استغلال أية ضيفة من ضيوفه، لا بل أية امرأة بهذه الطريقة. ولكن الأمر قد انتهى الآن. لقد أدّى واجبه الأخلاقي وتفادى المشكلة. فقد استفاقت الآن وباتت قادرة على إجراء اتصالاتها الهاتفية بنفسها. فإن أرادت استعادة فستانها، والعودة إلى غرفة ذلك الثعبان، فلم لا تفعل هذا؟ ولِمَ عساه يهتمّ لِما تفعله هذه المرأة بحياتها؟

لكنه يهتمّ...

- أنتِ لا تفكرين بجدية بالعودة إلى ماثيو بعد كل الذي فعله بكِ ليلة أمس؟

- اسمع.

وضعت فيليسيتي سماعة الهاتف، وابتسمت وهي تستدير لتواجهه:

- شكراً لك على اهتمامك بالرغم من أنك أسأت توجيهه. أنا واثقة من أن نواياك حسنة، ولكنني كنت أعرف تماماً ما أفعله ليلة أمس، ولم أكن بحاجة إلى مساعدتك.

- اسمحي لي أن أخالفك الرأي.

اتّسعت عينا فيليسيتي ورفعت حاجبيها استغراباً عندما استبدل لكنته الإيطالية بلكنة انكليزية راقية.

- هذا القول هو المفضّل لدى واحد من المدراء العاملين لديّ في لندن.

لاحظ لوكا تعجّبها، ولكن لم يدم تغيير الموضوع واللكنة لوقت طويل. فقد استعاد بثوان لكنته الإيطالية وتابع بحدّة، وهي تنظر إلى الأرض عوضاً عن النظر إليه.

- الأمر الوحيد المنطقي الذي فعلته ليلة أمس كان طلب المساعدة مني

أنا.

صاح ورفع ذقنها بإصبعه إلى الأعلى مرغماً إياها على النظر إليه، وتابع:

- ولعلك تريدينني أن أنعش لكِ ذاكرتك.

- ربما لا أريد هذا.

ابتسمت فيليسيتي ولكنه لم يعر انتباهاً لابتسامتها بل تابع:

- لقد ألهى زميل لنا ماثيو، في حين أخبرتك أن ماثيو يتلاعب بشرابك. وفي الحال، انهمرت الدموع من عينيك ورجوتني يا آنستي أن أخلّصك منه، وأن أساعدك، رجوتني ولم تتركي لي خياراً آخر سوى اصطحابك إلى هنا.

- وبالرغم من ذلك لم تكن مضطراً لفعل ما فعلته.

قاطعته فيليسيتي وازاحت يده عن وجهها وراحت تواجهه، إلا أنه لم يكن قد أنهى كلامه:

- صدقيني، أتمنى لو أنني لم أزعج نفسي! فلو كان هناك من غرفة فارغة في الفندق لكنت أنزلتك فيها، ألا تظنين بأن هناك أموراً أفضل أقوم بها ليلة أمس عوضاً عن السهر عليك؟ فلم يكن لدي حشد من الضيوف لأعتني بهم فحسب، بل أيضاً كانت الصحافة مدعوة لتنشر قصة عن... تباً!

ومن دون التوقّف لالتقاط أنفاسه، ومن دون التقدّم بالمزيد من الإيضاحات، مشى في الغرفة، وفتح الباب على مصراعيه. شحب وجهها وأيقنت أنها استفزته كثيراً وبأنه سيرميها خارجاً، وأيقنت بأنها تستحق تماماً ما يفعله بها. فقد تصرّف لوكا سانتانو معها بمنتهى النبل ليلة أمس في حين أنها لم تعامله إلا بالسوء.

- أين تذهبين؟

صاح بها فتسمّرت في مكانها وتابع:

- إلى أين تظنين أنك خارجة بحقّ الله؟

- سأعود إلى غرفتي، ظننتك تطلب مني المغادرة.

- كنت سأحضر الجريدة محاولاً إخبارك لما كان لدي أعمال أهمّ من الاعتناء بكِ ليلة أمس.

تصفّح الجريدة وعبس فأدركت فيليسيتي بأنه لم يقرأ شيئاً جيداً، وبعد أن رمى الجريدة جانباً، عاد فصبّ جام غضبه عليها:

- أهذا هو نوع الرجال الذين تتعاملين معهم؟ رجال يرمونك في الرواق وأنت لا ترتدين شيئاً سوى ملاءة تلفين نفسك بها؟ أتنظرين إلى نفسك بهذه الطريقة الوضيعة؟

أخذ نفسين عميقين وأرخى قبضتيه فلانت ملامحه وقال برقة:

- فيليس، هذه حتماً ليست بطريقة ملائمة للحياة.

بالكاد تستطيع تحمّل غضبه والآن عليها تحمّل احتقاره. صحيح أن هذا رأيها بنفسها أيضاً. ولكن عندما لان صوته، وناداها «فيليس»، أوشكت أن تنهمر الدموع من عينيها وتنهار. فراحت تشدّ بقوة على أسنانها محاولة منع نفسها من الاستسلام للدموع.

اختنقت وقالت وهي عاجزة عن النظر إلى عينيه مباشرة.

- علي أن أرحل، سأتصل بالمصبغة ليحضروا لي فستاني، وبعدها سأدخل الحمام لنحو دقيقتين وأغادر من هنا على الفور.

ضغطت على رقم الهاتف، أرادت أن تطلب إحضار فستانها لترتديه وتغادر هذا المكان وتذهب بعيداً عن لوكا وعن أسئلته اللامتناهية، فحياتها مضطربة بما يكفي وهي لا تحتاج إلى الخضوع للاستجواب.

ولكن لوكا لم ينهِ كلامه بعد، وراح يحوم حولها كملاك، وأمسك بيدها، وسألها فيما انهمرت دمعة على خدها:

- ألا يفترض بالخطوبة أن تكون حدثاً مميزاً؟ ألا يفترض بالليلة التي يطلب الرجل فيها من زوجته العتيدة الزواج به أن تكون ليلة خالدة؟ لا

علاقة عابرة تحت تأثير المخدر؟

- أنت لا تفهم.

قالت فيليسيتي هذا وهي تصر على أسنانها وتتمنّى لو يتوقف عن هذا ويتركها وشأنها.

- أفهم هذا، إن كنت سأطلب يدك للزواج، فسأحرص على أن تمضي وقتاً ممتعاً، وأعاملك كما يحقّ لكلّ امرأة أن تُعامل، لا أن أجعلك تفقدين رشدك. فمهما كان الدافع وراء ما جرى ليلة أمس، فهو غير مبرر.

كانت يده تلامس كتفها الآن، لكنها لم تنظر إليه. فقد أجابت عاملة الاستقبال، وسمعت صوتاً في البعيد يعرض عليها المساعدة، ولكنها لم تكن تسمع سوى كلمات لوكا. فقد أثرت بها كلماته، وللحظة قصيرة تخيّلت نفسها بين ذراعيه، هي المرأة المحظوظة التي اختارها، وفكّرت كم سيكون من الرائع أن يحبّها رجل كهذا ويطوّقها بذراعيه، ويتغزل بها بصوته الخشن. زادت صورة الكمال التي تخيلتها من ليلة أمس، فجاء صوت لوكا أشدّ وقعاً من صوت ضميرها.

- أفهم بأنك....

وتردّد للحظة يبحث عن الكلمة الملائمة، وقبعت فيليسيتي في مكانها عاجزة عن اتخاذ قرار.

عرفت بأن عليها أن تعود وتنهي ما بدأته، ولكن ثمّة شيء ما في لوكا، شيء في عذوبة صوته، وكشفه لنوايا ماثيو جعلتها تبقى في مكانها.

- لست مرتاحة.

والآن وقد وجد ضالته تابع الكلام بسرعة مصمّماً على إكمال حديثه ومنحها خياراً آخر... أي شيء باستثناء رؤيتها تعود إلى ذلك الرجل.

- أرى بأن وجودي يجعلك تشعرين بالغرابة، ولكن هذا الوضع لن يدوم، إذ يفترض بي السفر إلى روما. سأتصل بالاستعلامات وأطلب

منهم إحضار أغراضك إلى هنا. يمكنهم أن يقولوا لماثيو هذا بأنك غادرت إلى المنزل لأنك مريضة، تماماً كما قلت في السابق. سيمنحك هذا بعض المجال والوقت. أرجوك يا فيليس، أعرف بأنني لا أفهم ما يجري، ولكنني على ثقة أن عليك التفكير ملياً قبل العودة إلى هذا الرجل. فليلة أمس لم تكوني مستاءة فحسب بل مضطربة، وبالرغم من أنني لا أوافق البتة على أساليب ماثيو إلا أنه قد يكون قد أسدى لك خدمة.

- كيف توصّلت إلى هذا بحق الله؟

ضحكت ضحكة ساخرة لم تلقى أهمية فيما تابع لوكا الكلام ولخّص مشاعرها الداخلية الخاصة بطريقته المباشرة.

- لقد نطقت بالحقيقة ليلة أمس، فأنت لا تريدين أن تكوني في سرير ماثيو.

وما إن مد يده مجدداً، تردّدت فيليسيتي لبرهة ثم أعطته سماعة الهاتف فوضعها مكانها.

فبغض النظر عن نتائج ما سيجري، لوكا محقّ.

العودة إلى ماثيو ليست خياراً مطروحاً أمامها.

٢- من ينقذها؟

دقّ الباب بصخب عندما أحضر الفطور، ولكن وبسبب معرفته بطاقم الموظفين كلّه، راح لوكا يتحدث إلى النادل، في حين جلست فيليسيتي على حافة السرير، تضرب على الأرض برجلها العارية، والخجل يتآكلها، وهي تخشى ما يفكّر به النادل حتماً في سرّه. وتمنّت لو يصحّح له لوكا ما يراه ويخبره بأنها ليست مغامرة أخرى من مغامراته، وبأنها لا تستحق أن تصبح موضوع حديث الصباح بين الموظفين لأن شيئاً لم يحدث بينهما.

لم يحدث شيء!

طبعاً، فلوكا لا يُقدم على هذا النوع من التصرفات. وعوضاً عن توضيح الأمر للنادل، استدار نحو فيليسيتي بعد أن أُعدّت طاولة الفطور، وقال لها من دون أن يلاحظ انزعاجها:

- تناولي شيئاً ما.

إلاّ أن فيليسيتي هزّت رأسها نفياً وهي مصمّمة على عدم قبول أي شيء منه، فتابع:

- اشربي القهوة على الأقل، أو لعلّك تفضلين الاستحمام أولاً.

أومأت إيجاباً. وبالرغم من عدم رغبتها بقبول أي شيء منه، لم تستطع رفض فكرة الاستحمام.

طلب من النادل الخروج بإشارة من يده.

فكّرت فيليسيتي بمرارة أنه متكبّر، وهو يطلب من العمال الانصراف تماماً كما يفعل ماثيو، ولكن وفيما همّ النادل بالمغادرة، تفاجأت

لسماعها لوكا يقول بلهجته القوية شكراً، ثمّ يعود ليبتسم لها.

- ما رأيك بأن أجري عنك ذلك الاتصال الهاتفي؟ ستجدين في الحمام رداءً والأغراض التي قد تحتاجينها، وإن احتجت إلى أي شيء آخر أعلميني.

- سأكون بخير.

سأكون بخير تماماً، فكّرت فيليسيتي وهي تدخل الحمام، وتنظر إلى القناني الزجاجية الفخمة البعيدة كل البعد عن الأغراض التي تضعها في حقيبة أغراضها، المتروكة في غرفة ماثيو.

قرّرت الآن بشكل نهائي أنها لا تستطيع الاستمرار في علاقتها مع ماثيو ولن تفعل، فسرّت لمدى شعورها بالارتياح، فقد كانت تحمل على كاهلها عبئاً كبيراً، واضطرت لإدّعاء البرودة وإخفاء نار الغيظ التي تستعر في داخلها، والابتسام.

نظرت إلى نفسها في المرآة، ورأت شعرها غير المرتّب، وعينيها السوداوين، وجفنيها المنتفخين، تكاد ملامحها هذه أن تلخّص قصة حياتها. وفجأة سمعت قرعة خفيفة عند الباب.

- فيليس، آسف لإزعاجكِ.

تراجع لوكا إلى الخلف عندما فتحت فيليسيتي الباب فتحة صغيرة، وقال:

- ولكنني بحاجة إلى معرفة اسم عائلتك، يريدونه في مكتب الاستعلامات من أجل المعلومات المدرجة على الكومبيوتر.

- كونلون.

راقبت حاجبيه يعبسان لسماعه اسم عائلتها، كرّر:

- كونلون؟ لَم أعرف هذه العائلة؟ أهي معروفة؟

- إنها كذلك بالنسبة لي.

بالكاد ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيها. وللمرة الأولى منذ لقائه

الغريب، لم يبد لوكا سانتانو واثقاً من نفسه كما عهدته.

طقطق بأصابعه وهو يفكّر:

- ريتشارد كونلون؟

وطقطق مجدداً بأصابعه لتوصّله إلى معلومة أخرى:

- كان يملك متجع «بينينسولا غولف».

- قبل أن تشتريه مقابل حفنة صغيرة من المال.

عبس للقساوة التي شعر بها في كلامها، وأردفت:

- أنا ابنة ريتشارد كونلون، وأنا أحاول لمّ الأشلاء بعد أن دمرته.

لم يحتج لوكا إلى طقطقة أصابعه بعد الآن، فقد بدأ يتذكّر التفاصيل. إنه المتجع الذي اشتراه بثمن بخس منذ عام أو أكثر. والشعور بالذنب الذي قرّر تجاهله وعدم التفكير به لطرده رجلاً مفلساً. حسناً، يستحق ريتشارد كونلون ما جرى له، بيد أنه لم يعد يذكر كافة التفاصيل التي زوده بها المدير الجديد ماثيو الذي استلم وظيفته مؤخراً. أكان القمار أو الكحول، أو الإثنين معاً؟ ولكن ومهما كان السبب الذي دفع ريتشارد إلى الإفلاس، فهو لم يسترح يوماً لهذه المسألة، وها إن شعوره بالذنب يتضاعف وهو ينظر إلى وجه ابنة المالك السابق للمتجع.

قال لوكا بصوت يفتقر إلى الثقة بالنفس:

- كانت صفقة عمل.

- نعم طبعاً.

- آسف لما جرى، ولكنني لست المسؤول عن ذلك. فقد كان والدك رجل أعمال سيء، وجلب هذا لنفسه.

انفجرت فيليسيتي غضباً وقالت بصوت يرتجف:

- والدي، والدي رجل أعمال ناجح، وما زال كذلك. والسبب الوحيد وراء استمرارية المتجع عائد إلى المجهود الذي يبذله والدي فيه وساعات العمل الطويلة التي يقضيها هناك.

- أما زال يعمل هناك.

وأجاب لوكا على السؤال الذي طرحه بنفسه.

- نعم تذكرت، لقد أبقيته كمدير.

- بل كمساعد مدير، مساعد الرائع ماثيو، رجل يدير المتجع بقبضة من حديد ويغرف الأرباح كلّها ليضعها في جيبه عوضاً عن تحسين المكان. رجل يعتاش من الإرادة الطيبة التي وضعها والدي طيلة هذه السنين عندما كان المالك.

- لِمَ إذاً كنت سترتبطين به إن كان بهذا السوء؟

لو قال لها هذا الكلام في ظروف مختلفة لكانت استاءت واستشاطت غيظاً، ولكن الآن، وبسبب مزاجها السيء، بالكاد تأثرت بما قاله لها. فقد أطلقت العنان لأشهر من الصمت والاستسلام، وها هي تنفجر الآن وتبوح بكل شيء:

- لأن شريكك أوضح لي تماماً بأنني ما لم أقم علاقة معه، ويحصل عليّ، فسيخسر والدي وظيفته.

- هل يبتزّك؟

- نعم، شريكك يبتزني.

- شريكي؟ ماثيو ليس شريكي.

ضحك وهزّ رأسه لثانية. يبدو أن لوكا سانتانو غاضب أكثر ممّا توقّعت، فقد اشتدت ملامحه، وضاقت عيناه الزرقاوان وأطلق تنهيدة عميقة.

- أهذا ما يقوله؟

وعندما لم ترد فيليسيتي عليه طالبها بإلحاح أكبر:

- أهكذا يعمل ماثيو هذا ويفرض سلطته؟ بإخباره الموظفين بأنه المالك؟

صحّحت له فيليسيتي:

- شريك المالك.

- شريك المالك.

ردّد كل كلمة بغضب وتابع:

- إنه ليس بشريك المالك، أنا وحدي المالك! ويملك مدراء المنتجعات السياحية الصغيرة التي أملكها ٥٠% من قيمة الأسهم، فهذا أمر مفيد لرفع معنوياتهم، وزيادة الأرباح.

- آه، نعم الأرباح.

وجدت فيليسيتي نفسها تنظر إلى لوكا باحتقار وأردفت:

- أنت قلتها، فجميعنا يعرف كم أنك مولع بهذه الكلمة بالذّات.

- تباً! ماذا تعنين بقولك هذا؟

صاحت فيليسيتي:

- الأرباح.

ما من جدوى من التراجع الآن، فقد تورّطت كثيراً بالمسألة وباحت بمعلومات جمّة. أقلّه تستطيع الآن جعله يتذوّق بعض الألم الذي سببّه لعائلتها، وستحرص على أن تكون الكلمة الأخيرة لها.

- الأرباح هي همّك وهاجسك أنت وأمثالك. الأرباح هي السبب الذي يدفعكم لدفع رواتب بخسة لموظفيكم، الذين يضطرون للعمل ساعات إضافية من دون الحصول على حقوقهم، والأمر الذي دفع بمنتجع رائد إلى العمل بشكل سيء للغاية.

- سيء للغاية؟

- لا تدّعي بأنك لا تفهم ما أقوله، فالمنتجع يلفظ أنفاسه الأخيرة، انتهى أمره. هل فهمت الآن؟ أنا واثقة من أنه لا زال يدرّ عليك مالاً وفيراً فعلى الورق يبدو كل شيء بخير، ولكن الموظفين يغادرون بكثرة ولن يطول الأمر قبل أن يحذو الزبائن حذوهم.

ساد صمت مخيف. ولم تكن فيليسيتي تصدّق بأنها باحت بالحقيقة

كاملة، وباحت بها للوكا. أما هو فقد شحب وجهه، وتقلّصت عضلات وجهه غضباً، وجحظت عيناه.

- ولكن ما دخل كل هذا بي؟ ولِمَ أنتِ..؟

أنهت فيليسيتي الجملة عنه:

- مستعدة لأرتبط به؟ أتجرؤ على سؤالي عن السبب الذي يدفعني إلى بيع نفسي لرجل مثله؟

راقبته بجفل لكلماتها واستمتعت بذلك، وأردفت:

- لأنني ابنة أبي، أرى ما يجب القيام به وأقوم به.

وعندما لم يردّ، رفعت ذقنها إلى الأعلى، وتابعت كلامها بصوت ملؤه التحدي:

- والدي ليس برجل أعمال سيء، فهو ليس بمقامر ولا مدمن على الكحول يبعثر أمواله يميناً ويساراً. كان أخي يحتضر....

صمتت لبرهة، وأخفى ظلّ أسود بريق عينيها، فشكّل المؤشّر الوحيد على عمق ألمها وأكملت:

- قدّم المال الذي جناه والدي من بيع المنتجع بعض الوقت الإضافي لجوزيف.

- كم من الوقت؟

- ستة أشهر، كان هناك علاج في الولايات المتحدة، لم يكن بعلاج، ولكن بيع المنتجع حوّل بضعة أسابيع من الألم إلى ستة أشهر غالية. وسمح لنا بأخذ جوزيف إلى باريس وروما، ومنحنا الوقت لنقول كلّ ما يجب أن يُقال، وأن نوجز حياة كاملة من الحبّ بستة أشهر رائعة، ولو عاد بنا الزمن إلى الوراء، لكرّر والدي كلّ ما فعله.

- ما زلت لا أفهم.

- يضع الموت الأمور في نصابها، ولكنّه لا يمنع الفواتير من التراكم. اضطر والدي إلى البدء من جديد، وها هو يعمل الآن مقابل راتب بخس

يتقاضاه من مجموعة شركات سانتانو، ويضطر إلى مشاهدة المنتجع السياحي الذي بناه بحبّ يتبخّر. ولكنه لا يشتكي، فكلّ ما يريده هو ثلاث سنوات من العمل. ثلاث سنوات يسدّد خلالها الرهن ويوفّر مبلغاً صغيراً لتقاعده، يريد يوم عمل شريف مقابل أجر شريف. ولكن ماذا يعرف أمبراطور سانتانو عن كل هذا؟ فكلّ ما يهمّه هو جني الأرباح.

– أنت مخطئة. صحيح أنني أهتمّ بالأرباح فأنا رجل أعمال، ولكنني أهتمّ أيضاً للعاملين لدي، وبالمقابل يقدّمون لي الإخلاص التامّ. لست مضطراً لملاحقتهم والتدقيق في الأمور من بعدهم لأنني أعرف بأنهم يعملون مئة في المئة.

صاحت فيليسيتي:

– يعملون مئة في المئة لأنهم يخشون خسارة وظائفهم.

– هذا هراء.

عرفت الآن أنه يستشيط غيظاً وحنقاً، وصاح:

– يعرف العاملون لدي بأنني أهتمّ بهم. فأنا أحرص على ألا تُنسى أعياد ميلادهم، وعلى أن يُكافىء إخلاصهم. خذي ريكو الرجل الذي كنت أتحدث إليه هذا الصباح، على سبيل المثال، يصادف ذكرى عيد زواجه الأربعين الأسبوع المقبل. وسينزل في هذه الغرفة مع زوجته، ويحظى بالخدمة نفسها التي أطالب بها لنفسي....

– مع حصوله على حسم ١٠% تماما كما يفعل ماثيو.

صاح لوكا:

– لا، لن يكون هناك من حسم، إذ لن يكون هناك من فاتورة، ريكو يستحق هذا.

لم تجب للحظات، وراحت تستوعب كلماته وقد ارتبكت. فهو لا يبدو رجلاً يسيء معاملة موظفيه كما تخيلته. وقد بدأ اشمئزازها منه يتلاشى. لم تعد تراه كما تخيلته، ولكن ما زال الشكّ يراودها.

– ماثيو هو المخطىء.

كان صوته أكثر هدوءاً الآن، ولكنها لا تزال تسمع الحقد فيه والغضب. إلاّ أن حنقه على ماثيو لم يرحها كثيراً ولم يزل عنها آثار سنة كاملة من العذاب، وتابع:

– أنا لا أعامل الموظفين لدي بهذه الطريقة.

حدّقت إليه بعينين شاحبتين:

– ولكنك فعلت، ألم تفهم بعد يا لوكا أنك فعلت هذا؟ قد يكون ماثيو شريكك أو مديراً لديك. أو أية صفة أخرى يطلقها على نفسه، ولكن اسمك هو المدوّن على المعاملات، وتوقيعك واضح على الشيكات. وأنت المسؤول عن تدمير والدي.

– بحق الله!

أمسك بها بمعصميها وشدّها نحوه، ولكنها لم تخشَ الغضب الذي أيقظته في داخله، بل تقوّت بفضله. فكّرت بكلماتها واستجمعت قواها، وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تتابع بنبرة أكثر هدوءاً ولكن ملؤها الكره.

– ماثيو يبتزني.

شعرت به يشدّ على معصميها، ورأت الغضب يزداد في عينيه وهي تتابع كلامها بكلمات متقطّعة:

– لن يصرف والدي من عمله فحسب، بل سيقضي عليه أيضاً. لقد أكّد لي بأنه سيتهم والدي باختلاس الأموال إن لم تجر الأمور بحسب خطته الدنيئة. لقد قضى على مهنة والدي وهو مستعدّ للقضاء على سمعته أيضاً لخدمة قضيته.

– وما هي قضيته؟

لم يعد يشدّ على معصميها كالسابق، بل كان يمسك بهما فحسب، فأفلتت فيليسيتي من قبضته.

ابتسمت ابتسامة جافة:

- يظن ماثيو أن من حقّه الحصول على زوجة شقراء جميلة. وحتى ولو بدوت مغرورة، فأنا لا أنوي الاعتذار.

- نعم إنها الحقيقة.

قال هذا وجال بفكره بعيداً عن الأخبار التي نقلتها إليه لينصبّ على المرأة الجميلة الجذابة الواقفة أمامه، وتابع:

- تعتبرين جمالك لعنة.

صححت له ما قاله:

- لم أقل إنني جميلة، ولكن نعم، فالظهور كمراهقة بريئة أمر له سيئاته على الصعيدين المهني والخاص.

وحدّقت إليه بتحدٍ وسألت:

- هل كنت لتأخذني على محمل الجدّ إن تكلّمت في مجلس الإدارة يا سيد سانتانو؟

ارتبك لسؤالها، إلاّ أنه أجابها بسرعة:

- أنا لا أميّز على أساس الجنس، فإن كنت محقة فيما تقولينه سأستمع إليك حتماً.

بدا جاداً في كلامه، ولكنها لم تستطع منع نفسها من الضحك.

- أنتِ تناقضين نفسكِ يا فيليس، تُطالبين بأن تؤخذي على محمل الجدّ بالرغم من مظهرك الخلاّب، في حين أنك مستعدّة للارتباط برجل يريدك كتحفة يعرضها في منزله. هذا غير منطقي.

- ظننت أنني قادرة على ذلك.

غابت الحدّة من صوتها، وجاءت توجيهات صوته أكثر قوة من صوت الضمير، وتابعت:

- ظننت فعلاً أنني أستطيع اعتبار هذه المسألة مجرد صفقة عمل.

- ولكنك لم تتمكني في النهاية من استكمال الأمر.

جاء كلامه بمثابة تصريح لا سؤال فأومأت.

- أنا لست من هواة الرومنسية يا لوكا، ولا أؤمن بوجود توأم لروحي ينتظرني في مكان ما، فالزواج من ماثيو لم يكن ليفرض عليّ التخلي عن حلم طالما تقت إليه، بل كان وسيلة يبرّر غاية، أو حلّ لمشكلة.

- نظرتك للزواج سيئة جداً بالنسبة لشابة في سنّك. وماذا لو أراد إنجاب الأولاد؟ وماذا لو..؟

- لا! ما كنت لأنجب له أولاداً أبداً!

- وكيف عساك تتأكدين من هذا؟ وكيف تعرفين بأنه لن يهدّدك أكثر ويطالبك بطفل؟

- يمكنه طلب ذلك بقدر ما يشاء، ولكن هذا هو الأمر الوحيد الذي ما كنت لأمنحه إيّاه مهما كلف الثمن.

- على الأقل فكّرت بهذه المسألة.

وجال بنظره على وجهها يبحث في عينيها عن دليل على شخصيتها المتقلّبة.

- هذا الموضوع الوحيد غير القابل للمناقشة.

طارت كلماتها في الفضاء لفترة غير قصيرة. حدّقت إلى الأرض هرباً من عينيه الجائعتين وإلى يديه اللتين تمسكان بمعصميها. أوشكت على سماع السؤال الذي يدور في خلده ولم يطرحه عليها، وشعرت بانتظاره كلامها، فقالت:

- ما كنت لأنجب منه طفلاً أبداً.

واستدارت لتبتعد فأمسك بها.

- قولي لي شيئاً واحداً.

سألها وهي تواجهه وحدّق إلى عينيها التعبتين. ذكّرته بهرة صغيرة أحضرتها أمه إلى المنزل ترتجف وتلهث وهي رائعة بالرغم من كل هذا.

- كيف أصبحت بهذه المرارة؟

تململت لبرهة وقد نفذ حكمه عليها إلى صميم قلبها. أرادت أن

تصرخ وتقول له بأنّه ظلمها، وبأنه مخطىء، ولكن ما الجدوى من ذلك؟

يستحسن أن يراها قاسية متعالية، وأن تنسحب الآن.

- عشت سنوات من الخبرة، والآن....

وابتسمت ابتسامة جافّة وأردفت:

- إن سمحت لي باستعادة معصمي، أود الاستحمام.

يا لروعة المياه التي انسابت على وجهها وشعرها، وكست شعرها الملبّد! سمحت لتلك الدموع التي حبستها سابقاً بالانهمار على خديها وراحت ترتجف تحت رذاذ الماء وتحاول سبر أغوار ما أقدمت عليه لتوّها.

لفّت نفسها برداء أبيض ناعم، وسرّحت شعرها الأشقر الطويل. أصبحت شبه فارغة الآن وقد أخرجت المشاعر التي تجتاحها. نظرت إلى انعكاسها في المرآة، ورأت عدم الثقة في عينيها. وراحت شفتها العلوية ترتجف وهي تحاول التفكير بخطة هجوم، وبحلّ لمشاكلها.

ظنّت فعلاً أنها قادرة على ذلك.

ظنت فعلاً أنّ بوسعها وضع مشاعرها جانباً، وتجاهل تبعات الارتباط الخالي من المشاعر، وفعل كلّ ما بوسعها لمنح والدها بعض الراحة. ولكنها في النهاية قد خذلته.

وأزاحت بعيداً بالأعذار التي راحت تخطر ببالها وفتحت باب الحمام لتخرج، ما من عذر يبرّر فعلتها!

لوكا سانتانو محقّ، ففي النهاية ما كانت لتستطيع المضي قدماً في هذا.

- أنا آسف، آسف جداً لِما حصل لكِ ولعائلتك، فأنا أتحمّل المسؤولية كاملة.

لم يكن ينظر إليها، بل يقف عند النافذة حزيناً.

- الذنب ليس ذنبك.

تفاجأت فيليسيتي لِما قالته. فطيلة عام كامل، كان اسم لوكا سانتانو يثير فيها رغبة بالغثيان، وبالحقد، ولكنها الآن تقف أمامه، وتسمع

كلماته، وتعرف كم يشعر بالذنب، وقد اتخذت مشاعرها فجأة منحى آخر.

- ولكن الذنب ذنبي.

وأخذ نفساً عميقاً، ووضع يديه خلف ظهره وأردف:

- كنت محقة، اسمي هو المدوّن على الأوراق، وأنا من يكتب الشيكات. وقد لطّخ ماثيو هذا اسمي. طبعاً لا أستطيع التواجد في كل مكان، لذا عليّ أن أثق بالمدراء الذين أعيّنهم، إلاّ أن واحداً منهم قد....

استدار وحدّق إليها بصدق وغضب، وكبرياء، وخجل، وتابع:

- تجرأ وعاملك بهذه الطريقة، ولذا سيطرد.

وطقطق بأصابعه، وتابع:

- ويختفي، فلا تبالي به بعد الآن.

- ليس الأمر بهذه السهولة، فحتى لو بالغ، لا يزال ماثيو...

- لقد اختفى.

قال لوكا هذا بثقة تامّة جعلت فيليسيتي تصدّقه.

- تقريباً..

في مرحلة من مراحل حياتها، توقّفت فيليسيتي عن الثقة بالناس. أما الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، يقول لوكا الحقيقة، وفيليسيتي لا تشكّ بذلك، ولا بمصداقية اعتذاره، ولا بإصراره على ملاحقة المسألة. ولكن بعد بضع ساعات سيعود إلى روما، إلى عالمه، عالم بعيد كل البُعد عن عالمها، ونواياها، وبالرغم من أن نواياه حسنة فستتلاشى.

لقد رأت ذلك في السابق مراراً وتكراراً.

لا تعني الوعود شيئاً!

- لكنه قد وقع عقداً.

تكلمت فيليسيتي بلهجة امرأة الأعمال كما لو أنها تتحدث إلى واحد

من عملائها.

- وثمة بنود تحميه من الطرد التعسّفي.

- وهل كانت هذه البنود لتحمي والدك؟ هذه تفاصيل صغيرة سيتولى أمرها المحامون العاملون لدي.

وطقطق بيده مجدداً وأردف:

- أعدك بهذا يا فيليس، لن تضطري يوماً إلى رؤيته مجدداً، ولا القلق بشأنه، ولا الخوف من أن يبتزّك.

- أنا قلقة على والدي، فبوسعي الاهتمام بنفسي.

- لا يا فيليس، يبدو أنك لا تستطيعين ذلك.

سار نحوها وعيناه لا تفارقان عينيها وتابع:

- كان يمكن أن يحصل لكِ أي شيء ليلة أمس.

- أنت تبالغ.

ظهرت الثقة في صوتها، ولكنها لم تشعر بها. لوكا محق، لعبت ليلة أمس لعبة خطيرة، غبية، وخلاصها الوحيد تمحور حول هذا الرجل الذي يقف أمامها. الرجل الذي أنقذها. ذهلت لتبدّل مشاعرها، وحاولت مقاومة ما يحصل، ودعت الله أن يمدّها ببعض المنطق والتعقّل.

لا يعقل أن تنجذب إلى لوكا سانتانو، هذه ردّة فعل أولية. لعلّها قد خلطت الامتنان بالإعجاب.

جاهدت لتتنفس بطريقة متزنة، لتبطىء دقّات قلبها المتسارعة وهي تطلب من المنطق السيطرة. إنها تشعر بالامتنان نحوه ليس إلاّ، وعليها تذكّر هذا باستمرار. تنحنحت، وحاولت أن تبدو واثقة من كلامها:

- كنت أعرف بما أتورّط.

- ربما.

برز عضل في وجهه، ولكن صوته بقي هادئاً وناعماً، وتابع:

- ولكن ماذا لو لم ينتهِ الأمر بكِ في غرفتي؟ ماذا لو جاء رجل آخر

و....

برز العضل بشدّة أكبر، وسألها:

- ماذا عندها؟

نظر إلى وجهها، ووضع يده على شعرها يسرّحه، ويتأمل العينين العسليتين، اللتين تبدوان أكثر نعومة من دون الكحل، وذلك الفم الزهري. كانت المرأة الناعمة الواقفة أمامه مختلفة تمام الاختلاف عن المرأة التي رآها للمرة الأولى، وقد أخافه ذلك، أخافه بكلّ ما للكلمة من معنى. وراحت الأفكار تسيطر على تفكيره، وتشعل فيه رغبة جامحة بحمايتها، وتشعره بذنب ما بعده ذنب للأسى الذي سبّبه لها.

- ولكنّ شيئاً لم يحدث.

قالت هذا بصوت مرتفع. أسرتها عيناه، وأمسكتا بها على خط النار، ولم ترد الابتعاد. وقالت:

- وانتهى بي الأمر هنا معك.

ارتسمت شبه ابتسامة على شفتيها، وظلّت تنظر إليه وتابعت:

- وقد قلت لي إنه لم يكن من الصعب عليك عدم الاستفادة من الوضع.

- لقد كذبت.

بقي الاعتراف الصريح والبسيط معلّقاً في الهواء. كان يقترب منها ببطء الآن، ويده لا تزال على شعرها، ويده الأخرى تلامس خصرها النحيل. الفرصة سانحة أمامها لتتحرّك، لتبتعد، ولكن عوضاً عن ذلك، كانت أسيرة فضولها، غارقة في المشاعر التي أشعلها. كانت كل خصلة في شعرها، وكل خلية في جسمها تخاف الابتعاد.

- اضطررت إلى استخدام كل ذرة قوة إرادة فيّ لأقاوم سحرك.

إنه لا يكذب. وأغلق عينيه للحظة وتذكر كيف ضمّها بين ذراعيه. تذكّر كيف واسى هذه الغريبة، وشعر بالرغبة في حمايتها عندما توقّفت عن

البكاء، وتقوقعت كقطعة صغيرة تتنفس بالقرب من يده، وتقترب منه بحثاً عن الأمان. عادت إليه رائحتها وملمسها. اضطر إلى بذل مجهود كبير للاكتفاء بالاستلقاء هناك قربها من دون الاستجابة لمشاعره. ولكن الآن، رؤيتها من دون تبرّج، شابة، بريئة، أيقظت فيه مشاعر جديدة، يريد حمايتها أكثر من ذي قبل، لقد اختفت المرأة المتأنقة التي رآها لتحل محلها امرأة بريئة رائعة، وأكثر إثارة. شعرت بدفئه، ولم تعد تشعر إلا به. وغاب كل شيء من حولها.

يُشعرها لوكا بالأمان.

وللمرّة الأولى منذ وقت طويل، وجدت رجلاً تستطيع أن تستند عليه، رجلاً يستطيع ربّما تحسين الأمور. وحتى ولو كان الأمر مؤقتاً، رحّبت بميناء ذراعيه. أرادت أن تهرب إلى العالم الذي يقدّمه لها بعيداً عن عالم الحقيقة لترتاح.

رأت نفسها تتجاوب معه بطريقة لم تعرف لها مثيلاً.

ضمها إلى صدره فشعرت وكأنها تقع، تقع من مكان عالٍ بحرية وعدم خوف. فرحت لوجودها بين ذراعيه ونظرت إلى عينيه اللتين تحدّقان فيها.

إنّها لم تعش حياة عاطفية طبيعية بسبب الظروف، أولها امتحاناتها المدرسية وبعد ذلك مرض أخيها. ولكن ها هي الآن تضعف أمام هذا الرجل الذي يجعلها تشعر بأنها امرأة.

اقتربت منه أكثر تبادله عناقه مع أن شيئاً من الخوف ساورها.. ولكن الجنة التي تشكلها ذراعاه طردت هذا الخوف بعيداً.

شرد ذهنها قليلاً وعمت الفرحة قلبها ووجهها.

- لِمَ تبتسمين؟

- كَيف عرفَت أنني أبتسم؟

سألته واتسعت ابتسامتها.

- شعرتُ بهذا..

ما هذا الرجل... أمامه تشعر بأنها كتاب مفتوح. يبدو أنه يعرف ما الذي تفكّر به.

اصرّ لوكا: «إذاً قولي لي لِمَ تبتسمين؟».

- لا أصدق بأنه ومنذ ساعة، كنت شخصاً أمقته إلى حد كبير...

راح ينظر إليها بعينيه المعبرتين وقد بدت فيهما مشاعر جامحة.

- ماذا تفعلين عادة؟ أتعملين؟

- أنا في الجامعة.

- هل أنتِ تلميذة؟ كم تبلغين من العمر؟

ولاحظت المفاجأة في سؤاله، فضحكت:

- لا تقلق! أنا تلميذة كبيرة على صفي. أعلم أنني أبدو صغيرة ولكن ما من داعٍ للقلق فأنا محاسبة.

- حقاً؟

ارتسمت ابتسامة على شفتيه وقد أحنى رأسه قليلاً وامعن فيها النظر، وبالكاد تمالكت نفسها لشدّة نظراته الثاقبة.

- ظننت أنه يفترض بالمحاسبين أن يكونوا جديّين.

- ومملين أيضاً، إنه لغز ولكنني أعترف لك بأنني جدية. فمهنتي هامة بالنسبة لي.

- يبدو لي أنك تعتزّين بعملك.

- هذا صحيح. ولهذا أتابع دراستي في الوقت الحالي.

حاولت أن تركّز وتفسّر له بأنها قد أخذت فرصة طيلة عام حتى تنهي دبلوم في إدارة الأعمال.

- ولِمَ تبذلين هذا العناء؟

أربكَها سؤاله، بل أغضبها.

- المؤهلات هامة. لا يحصل كل الناس على الأمور على طبق من

فضة. قد يبدو الدبلوم أمراً تافهاً بالنسبة لك، لكنه كفيل بفتح أبواب وآفاق جديدة بالنسبة لي.

- ربما.

وافقها لوكا الرأي وأزال انزعاجها بابتسامة من ابتساماته الساحرة وتابعت:

- تبدو متفاجئاً، لا بدّ أنك لست معتاداً على أن تتحدث النساء معك عن بعض الأمور الجادة.

- معك حق.

رقصت ابتسامة على ثغره، وعاود الاقتراب منها ليضمها ولكنها ابتعدت.

- أعتذر إن كان كلامي قد أضجرك.

- لم أضجر، ولكنني أفكر بأمور أفضل نقوم بها عوضاً عن مناقشة سيرتك الذاتية.

- ولكن لو كنت رجلاً، لأبديت المزيد من الاهتمام.

- لا يقدّم الرجال الإلهاء ذاته.

- كم تميّز بين الجنسين!

قالت فيليسيتي هذا غاضبة، فضحك لوكا لغضبها.

- إن كان ذلك ذنبي، فأنا أعترف بذنبي إذاً، أنا رجل عنصري.

حاولت تغيير دفة الموضوع فقالت: «كل ما في الأمر هو أن عملي هام بالنسبة لي والتوقّف عن العمل لمدة عام بهدف الحصول على الدبلوم لم يكن قراراً سهلاً».

- ولِمَ أقدمتِ عليه إذاً؟ هيا أخبريني!

وأصرّ عندما رمته بنظرة مشكّكة وقال:

- أنا مهتمّ فعلاً.

سألته بفظاظة:

- ولماذا؟ لِمَ عساك تهتمّ بمهنتي؟

- لا أعرف.

بدا الارتباك في نبرة صوته فريداً من نوعه، ووجدت فيليسيتي نفسها تبتسم وهو يتابع:

- أعترف بأنني لست ضليعاً في الأحاديث الصغيرة.

عبست فيليسيتي ثم ضحكت للكنته واختياره للكلمات، فصحّحت له:

- تعني الدردشة.

وهذه المرّة عندما مدّ يده إلى وجهها وداعبها بلطف لم تبعدها بل على العكس أحنت خدّها حتى لامس يده وسمعته يقول:

- قولي لي لِمَ أخذت إجازة طيلة عام وتركت عملاً يبدو أنك تحبّينه من أجل الدراسة؟ هل يمولون في العمل دراستك؟

هزت فيليسيتي رأسها نفياً:

- ليس على الصعيد المالي، فقد اضطررت لأخذ قرض بغية تمويله.

- يبدو هذا مكلفاً.

- إنه كذلك، لكنه يستحق العناء على المدى الطويل. كان بوسعي الدراسة بدوام جزئي، ولكن هذه الطريقة ستدفع بي قدماً في مهنتي. فما إن أنهي دراستي حتى أنال ترقية كبيرة.

- ممّا يعني أنك ستكسبين عندها المزيد من المال.

- كما يعني بأنني سأتخلّص من ماثيو. فأنا لم أنوِ يوماً البقاء متزوجة به مدى الحياة، بل فقط حتى أتمكّن من الاعتناء بأهلي، أقلّه على الصعيد المالي.

- ألا تقتضي وظيفتهما الاعتناء بك؟

سألها لوكا بلطف وقد ظهرت بعض الحدّة في عينيه وتابع:

- ألا يفترض بالأمور أن تكون معكوسة؟ وهل كانا يعلمان بشأن

ماثيو؟ هل يعلمان كم تكرهينه، وما هي التضحية التي كنت ستقدمين عليها؟

- طبعاً لا.

هزّت رأسها بقوة مبعدةً هذه الحقيقة عن تفكيرها، ولكن لوكا خالفها الرأي. فأمسك وجهها بيديه القويتين وأجبرها على النظر إليه ثمّ وجّه إليها السؤال القاضي.

- يعرفان يا فيليس، لا بدّ أنهما في قرارة نفسيهما يعرفان.

غضبت كثيراً للوصف الذي ألحقه بوالديها، في حين أنهما يتمتعان بالكثير من الصفات الحسنة، وقالت له:

- أنت لا تفهم.

ردّ بتعجرف:

- لا؛ لا أفهم كيف يسمحان لهذا بالاستمرار. فمنذ أن وقعت عيناي عليك ليلة أمس، عرفت أنك تعسة، استطعت معرفة ذلك بالرغم من عدم معرفتي بكِ. من المؤكد أنهما عرفا بمشاعرك على مرّ الأشهر! حين أفكّر بذلك الثعبان يلمسك و....

شعرت بالكره الذي يكنّه له وبالغضب الظّاهر في كل كلمة ينطق بها، فقفزت بسرعة تحاول إعادة توجيه حنقه بعيداً عن الشخصين الأعزّ إلى قلبها في العالم بأسره.

- لم أكن على علاقة جسدية به.

لاحظت نظرة الارتياك في عينيه، وقد أفلت يديه اللتين كان يحضنها بهما فيما تابعت حديثها.

- كانت ليلة أمس لتكون المرة الأولى، لهذا كنتُ مستاءة إلى هذا الحدّ. لم يكن والداي يعرفان كم أنفر منه.

- ولكنكما كنتما ستعقدان خطوبتكما، وسوف يطلب يدك للزواج، أتتوقعين مني أن أصدق بأنكما لم تكونا على علاقة حميمة؟

- أنا لا أطلب منك تصديق شيء، ولكنها الحقيقة يا لوكا. لقد أبقيته بعيداً عني بإخباره بأنني لا أفكّر بإقامة علاقة مع رجل إن لم أكن مرتبطة به رسمياً. وقد نجحت حجتي لبعض الوقت. استطعت تحمّل الخروج برفقته، طبعاً لم أستمتع بذلك، ولكنني اعتبرت الأمر صفقة عمل، تفتقر تمام الافتقار إلى اللذة.

- لكن ماثيو طمع بالمزيد؟

استفهم لوكا ببطء، فأومأت فيليسيتي.

- لقد أوضح لي أن اللعبة التي أمارسها انتهت.

- إذاً لم يكن سيطلب يدك ليلة أمس فحسب، بل كانت ستكون أيضاً المرة الأولى...

- ولهذا تراني هنا.

لم يعلّق على محاولتها المزاح، وعرفت أنه لا يبدو مقتنعاً. فهو لا يزال يعتقد بأنّ والديها قد ادّعيا عدم معرفتهما بما يجري.

- اسمع يا لوكا، لم يكن والداي يعرفان بِمَا يجري، لقد أطلق ماثيو تهديداته عليّ وحدي، ولم أقضِ الأشهر الماضية أخبر الجميع بذلك. فحتى ليلة أمس، ظننت أنني أسيطر على الوضع، وبأنني أستطيع التعامل معه، ولكن عندما حانت ساعة الجدّ، لم أستطع المضي قدماً في ذلك. كنت محقاً عندما تدخّلت، والحقيقة هي أنني مسرورة لأنك قمت بذلك. صحيح أنني لست رومنسية، ولكنني أدرك أن....

وتقطع صوتها عندما حدّق إليها، واتّسعت عيناه.

- أكملي....

كان صوته بارداً، وقد عاد ليمسك بها، إلاّ أن لمسته اختلفت الآن تمام الاختلاف عن لمسته السابقة. شد بأصابعه عليها كاشفاً عن توتره الداخلي إلى أن بدا وكأنه يهزّها، ولمحت في عينيه إصراراً لم تعهده سابقاً.

- لوكا، أنت تؤلمني!

شعر بانزعاجها وبالخوف في صوتها فأفلتها فوراً، ولكنه بقي في الوضع ذاته، قلقاً، عيناه جاحظتان، وأنفاسه قصيرة ومتقطعة كما لو أنه انتهى لتوّه من الركض مسافة طويلة.

- أتحاولين أن تقولي لي بأن ليلة أمس لم تكن لتكون ليلتك الأولى مع ماثيو بل ليلتك الأولى بشكل عام؟ وبأنك عذراء؟

أوشكت أن تضحك، ولكنها ضبطت نفسها لأن لوكا لن يسرّ حتماً إذا ضحكت:

- تجعل الأمر وكأنه جريمة.

-لا، لم أقصد هذا أبداً.

شعرت برغبة مفاجئة بطقطقة أصابعها بحثاً عن الكلمة المناسبة، ولكن عوضاً عن ذلك تمالكت نفسها وأردفت:

- أنا عذراء في السادسة والعشرين من عمري.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة لم يرها، لكنه لاحظ ارتخاء كتفيها، وسقوط خصلة من شعرها الأشقر على جبينها، وقرّر أن يمرّر أصابعه عليها بلطف.

- لمجرّد أنك انتظرت يعني أنك أردت أن تتأكدي، أن يكون الأمر صائباً و..؟

- نعم، هذا صحيح.

والتقت أعينهما، فلم تشح بنظرها بعيداً هذه المرّة، فما لديها لتقوله غاية في الأهمية ولن تخشى:

- لا بد من وجود شخص مناسب أكون له.

كان عقله يعمل الآن بشكل مضاعف. فمعرفته بأنّ هذه المرأة هي أرض لم يكتشفها أحد أمر يفوق تصوّره. ولكن سماعها تتحدّث عن المستقبل وتخيّلها مع رجل آخر يلمسها، ويحبّها، يشعل شيئاً ما في داخله، شيئاً أسود ومؤلماً، وبالنسبة لرجل يملك كل شيء، لم يستطع التعرّف فوراً

إلى هذا الشعور الذي يخالجه وتحديده بالغيرة.

- إن كنت تريد فعلاً مساندتي، فلا تنسَ أمر والدي عندما تعود إلى روما.

- لن أخذلك يا فيليس، فأنا رجل يفي بوعوده.

قالت بنعومة، وهي تتجه نحو الهاتف:

- آمل هذا، وهذه المرة سأرحل فعلاً يا لوكا، وإن لم يكن فستاني جاهزاً فسأذهب لإحضاره بنفسي.

سألها:

- لِمَ عليك المغادرة بسرعة؟ لم لا تبقين لتناول الفطور على الأقل؟

- عليّ العودة.. فيكفي ما تحمّلته أنت من عبء مشاكلي.

- لماذا لا تبقين هذا اليوم معي لنتعارف؟

أومأت فيليسيتي: «وما فائدة التعارف ليوم واحد ما دمت تعيش أنت في روما في حين أعيش في استراليا، وهذا هو أصغر اختلاف بيننا. والاتفاق على البقاء على اتصال دائم، أو البقاء صديقين لن يهمّ».

- ولكنه ممكن.

جاء صوته مطمئناً، وإيجابياً، إلى حدّ أنها صدّقت كلامه لدقيقة أو اثنتين.

- لا تخدعنّ أنفسنا يا لوكا. ولكن من يدري؟ فقد ينال العام المقبل في حفل توزيع جوائز فندق سانتانو، منتجع «بينينسولا غولف» جائزة «المنتجع الأكثر تحسّناً»، ويعتلي والدي المنصة لتسلّم الجائزة.

- هل ستحضرين الحفل؟

فكّرت فيليسيتي وأجابت:

- أظن ذلك، ولكن عام فترة طويلة، فمن يدري أين سنكون عندها؟ وقد تقرأ عني يوماً ما في الصحف عندما أتسلّم جائزة «محاسب العام». ولكن تأكّد من أمر واحد هو أنني سأطالع صفحة الأخبار الاجتماعية من

الآن وصاعداً بمزيد من الانتباه لأتابع أخبارك.

لقد قالت شيئاً خاطئاً! إذ قد اسودّ الوجه الذي كان يبتسم، وتقطّب جبينه فجأة:

- ما الخطب يا لوكا؟

- لقد أعدتني لتوّك إلى العالم الواقعي.

وأشار إلى الصحيفة المرمية جانباً وقد قذفها قبل وقت قليل عبر الغرفة.

- سيحدث الكثير من المشاكل هذا الصباح، وسأكون الضحية.

ضحكت فيليسيتي، فسألها:

- ما المضحك إلى هذا الحد؟

- لا أصفك بالضحية يا لوكا.

- أكره هذه اللغة، وكل الجمل والتعابير التي لا تعبّر أبداً عن الغاية المنشودة، أين الجمالية في هذا؟

- أنت تبلي بلاءً حسناً.

حاولت فيليسيتي أن تهدأ من روعه ولكن آثار ضحكتها ما زالت ظاهرة في صوتها، سألته:

- إذاً لِمَ ستحدث الكثير من المشاكل هذا الصباح؟

- انظري بنفسكِ.

وأحضر الصحيفة وناولها إياها، وبعد لحظة من التردّد وافته وقد تملّك منها الفضول.

- هيا أيها الضحية المسكين! سأتناول معك فنجان قهوة واحد ثمّ أغادر.

راح يراقبها تقلب الصفحات بهدوء محاولة التركيز.

ثم تزايد اهتمامها أضعافاً مضاعفة عندما وصلت إلى صفحة الأحداث الاجتماعية.

لم يجدر بها أن تتفاجأ كثيراً لرؤيتها لوكا سانتانو يتأبط ذراع امرأة جميلة شعرها أسود، وعيناها قاتمتان. فمنذ اليوم الذي عاد فيه والدها إلى المنزل شاحب الوجه، يرتجف، وأخبرها أن سلسلة فنادق سانتانو عرضت عليه بيع المنتجع، راح وجه لوكا يبتسم لها في الصحف باستعلاء وخبث. ولكن كرهها قد زال الآن ليحلّ محله شعور بالغيرة من تلك المرأة الجميلة التي تبتسم له بإغراء.

- ظننت أنك واحد من أفضل العازبين في العالم، ولكن يقال هنا إنك مصنّف ضمن المئة عازب الأفضل.

- وماذا يقال أيضاً؟

جاء صوته أجش، ونظرت إليه من تحت أهدابها فراقبته يعبس وهو يتكلّم.

تنهدت:

- كالعادة، بضع كلمات تصفك بزير نساء وتتحدث عن ذوقك في اختيار النساء اللواتي تواعدهن.

- وماذا أيضاً؟

جاءت كلماته قوية تنمّ عن مدى توتره.

حاولت الردّ بنبرة خفيفة لا مبالية، وقالت:

- ليس بالكثير، يُطرح سؤال عن سبب تواجدك مع العروس الجديدة آنا جيوردانو في حين أن زوجها مريض في «موسيرالو».

- هذا تماماً ما كنت أحاول تجنبه، عمل محامي منذ البارحة لمنع الصحف من نشر هذه القصة.

- هل الذنب ذنبي؟ فلو لم تكن معي لكنتَ وضعت حداً لذلك.

- لا، قلت هذا لأنني كنت غاضباً، فقد كانت النسخة الأولى من الصحف قد صدرت قبل المساء.

راقبته وهو يضع يديه خلف رأسه ويطلق تنهيدة كبيرة مبالغاً فيها.

www.elromancia.com

وجهّت فيليسيتي نظرها إلى المقالة في الصحيفة وحاولت أن تتجاهل كم يبدو لوكا مثيراً.

- لم يساعد ضرب المصوّر بعد أن أخذ لنا الصورة قضيتي كثيراً. فأفضل المحامين في العالم يعجزون عن إيقاف الصحافة عندما تعقد العزم على نشر مقالة ما، اسألي العائلة المالكة عن هذا.

لو صدر هذا الكلام عن شخص آخر لبدا معتداً بنفسه، ولكن وفي تلك اللحظة بالذات، شعرت فيليسيتي بالهوّة التي تفصل بينهما.

فلوكا لم يكن يخالط أشخاصاً آخرين فحسب، بل يعيش في عالم مختلف تمام الاختلاف عن عالمها.

تعمّدت فيليسيتي ألا تنظر إليه، فهي تجهل تماماً ماذا ينتظر منها.

- كنّا أنا وأنا حبيبين، وبقينا معاً لسنوات عديدة. ولم تهتم الصحف لذلك عندها طبعاً. فقد كانت الآنسة آنا ريتوني وقتها، لذا لم يكن هناك ما يثير الجماهير ويحمسّهم. وسرّت عائلتانا أيضاً بعلاقتنا وانتظرتا حفل زفاف.

راقبها ليعرف ردّة فعلها، فبقيت جامدة، وسألته:

- ولكن لم يحصل أي زفاف.

- لم يحصل الزفاف الذي توقّعوه، إذ تزوجت آنا منذ ستة أشهر.

قالت برقة:

- هذا ما كتب هنا.

ولكن وبالرغم من شعورها بالغيرة، أحسّت ببعض خيبة الأمل. فالرجل الذي غيّرت لتوّها رأيها به، عاد ليكوّن لنفسه نظرة سيئة بنظرها.

- لم أقم علاقة معها.

قال هذا بصوت صريح وكلمات رزينة، لكنها نظرت إليه متسائلة، فتابع:

- ولكي أزيل الغموض، اسمحي لي أن أوضح بأننا لم نقم علاقة

أيضاً تلك المرّة. فمنذ أن تزوجت آنا بريكاردو، لم أقترب منها، بيد أنها حاولت ذلك. لكن المشكلة المطروحة هي أن أحداً لن يصدقني.

- أنا أصدقك.

ابتسمت فيليسيتي عندما رفّ لوكا عينيه متفاجئاً، وتابعت:

- ولكن لمَ تهمّك هذه المقالة إلى هذا الحدّ؟ أكره التكلّم بوقاحة، ولكن صورك في الصحف كل أسبوع برفقة امرأة خلابة، فحتماً لن يعير الناس اهتماماً للموضوع.

- بل سيفعلون هذه المرّة.

وأطلق تنهيدة عميقة ومرّر يده في شعره الأسود القصير. ثمّ وضع يده على ذقنه لفترة طويلة قبل أن يتابع:

- كما سبق وقلت لك، كنا حبيبين، وآنا مديرة علاقاتي العامة، ولكنني لن أواجه مشكلة في طردها.

- حذارِ، يمكنها أن تقاضيك بتهمة التحرّش الجنسي.

ضحك ولكنه عاد فهزّ رأسه، وعرفت فيليسيتي أن وقت المزاح قد انتهى.

- نحن من المنطقة نفسها.

- من موسيرالو؟

أومأ لوكا إيجاباً.

- ما زالت عائلتانا هناك. إنها قرية صغيرة، ولكن كلّما أعود إلى المنزل أتساءل كيف عساي غادرتها يوماً. تقع قريتي في جبال الألب الإيطالية، وأينما نظرت ترين منظراً يخطف الألباب، خاصة الآن. إذ تكسو الثلوج الجبال.

- يبدو المكان رائعاً.

- إنه كذلك، ولكن كونه يبعد عن روما مسافة ثلاث ساعات في السيارة يعني أنني لا أقصده مراراً، وأقضي معظم أيام الأسبوع في فندق

من فنادق. ولكن، أحياناً، عندما أشعر بالكثير من الحنين، أستقلّ الطائرة المروحيّة، ممّا يسهّل الرحلة. فبغض النظر عن فخامة الفندق، من الجميل أحياناً العودة إلى المنزل.

- افهم هذا، أعجز عن تصوّره ولكن أظن بأنني أفهم ما تقوله.

توقف عن الكلام للحظات، وضاقت عيناه الرائعتان وهو ينظر إليها بإمعان، ويفكّر إن كان عليه المتابعة أم لا. أدركت فيليسيتي أنها تحبس أنفاسها، وتتوق للنجاح في الاختبار الخيالي الذي تخضع له.

- كانت آنا تحبني، وكنت أبادلها الشعور نفسه، ولكننا لم نكن مغرمين. وبقدر ما تنكر ذلك، فأنا أعرف بأنها الحقيقة. أحبّت آنا المال، والغنى، وحياة الترف، ولكنها لم تحبني.

- لعلّها أحبّت المال وأحبّتك في الوقت عينه.

- لا.

هز لوكا رأسه بحزم وأردف:

- منذ بضعة أشهر، واجهت بعض المشاكل المالية، لا شيء خطير. توقّعت حدوث ذلك واحتطت لها وقمت بحلّها، إلاّ أنني لم أخبر آنا بذلك.

- أكنت تختبرها؟

سألت فيليسيتي وقد اتسعت عيناها.

- ليس في البداية، بصراحة لم أكن أريد إقلاقها. ولكنها ألحّت أكثر فأكثر، وأصبحت أكثر عصبية. فأدركت أنها تخشى بأن أفقد مالي، وبالرغم من استبعاد حصول هذا، لم أرحها، لذا، يمكنك القول إنني كنت أختبرها.

- وأظنها فشلت في الاختبار.

- لقد تزوجت بريكاردو جيوردانو بعد أسبوعين، وهو أيضاً من قريتي. كما أنه أشبه بوالدي.

بدت الأمور فجأة أكثر دناءة وتعقيداً، ففتحت فيليسيتي فمها مدهوشة وهي عاجزة عن عدم القيام بردة فعل.

فهم لوكا ما يدور في خلدها وأراح شكّها، وقال:

- ليس على علاقة بأمي. فقد توفي والدي عندما كنت في الثامنة، وكنت ألجأ إلى ريكاردو طلباً للنصح، أظنه يشكل صورة الأب في حياتي. فبالإضافة إلى كونه رجلاً رائعاً، فهو أيضاً فاحش الثراء. جنى ثروته من التجارة، وهو يجعلني أبدو غاية في الصغر أمامه، ولذلك تزوجت به.

- أنت لا تعرف هذا بشكل مؤكد.

وتفاجأت فيليسيتي لأنها وجدت نفسها تدافع عنها، وتابعت:

- لعلهما وقعا في الحب.

- إنه في الستين من عمره.

- آه!

- ويعاني من ضعف في القلب.

نظرت إلى الصورة وهزت رأسها، ثم قالت ببطء.

- يا للأسف! مسكينة آنا.

- ليست مسكينة!

- إنها مسكينة لأن المال لا يشتري السعادة.

- آنا تخالفك الرأي، فقد اشترى لها المال تذكرة سفر في الدرجة الأولى إلى ميلبورن في حين اعتقد زوجها أنها تعمل في فندق في سنغافورة. أرادت أن تتابع من حيث بدأنا، وأن نبقى عاشقين. طبعاً رفضت. فأنا لا أحتاج إلى إقامة علاقة مع امرأة متزوجة، ولا أريد ذلك حتماً. ولكن المشكلة هي أن هذه الصورة ستظهر في الصحف الإيطالية، وستتصل بي والدتي في أية لحظة الآن.

- إذاً قل لها ما قلته لي.

هزّ لوكا رأسه.

- الأمر ليس بهذه السهولة.

- بلى، فإن لم تقم علاقة معها كما تقول، ستعرف والدتك أنك صادق.

- تتوقع والدتي هذا، ولكن ما سيغضبها هو عدم تحفظنا على الموضوع.

- مهلك لحظة. لا تمانع والدتك أن تقيم علاقة مع امرأة متزوجة؟

- ولِمَ عساها تفعل؟ يملك الكثير من الرجال عاشقات، ما لن تسامحنا عليه هو عدم تحفظنا، وإهانة ريكاردو علناً. فهذه المقالة التافهة أفضل من الحقيقة. إذ أنا عاجزة عن تحمّل ريكاردو، ولا تريده بالقرب منها، وفكرة أنني نبذتها ستلحق العار بعائلتينا. فكيفما نظرت إلى الأمر أجده كارثة.

- آه يا إلهي! هل تشعر آنا بالقلق؟

سألته هذا وهي تحدّق إلى الصورة في الصحيفة وتتساءل كيف يعقل لامرأة بهذا الجمال إحداث كل هذه المأساة.

- ستقلق عندما ترى هذا. قلت لها بالأمس إن عليها احترام زوجها وعائلتها، وبأن علاقتنا انتهت بشكل نهائي.

- وماذا قالت لك؟

- وافقت، مع أنها شعرت بالإحراج وببعض الاستياء. وعندما تحدّثت إليها وأخبرتها عن شعوري، رجتني ألا أدع أحداً يعرف. أظنها أدركت أخيراً بأن عليها إنقاذ زواجها.

شكت فيليسيتي بذلك فرفض لوكا لامرأة يسبّب لها حتماً الكثير من الآلام.

تناولت الصحيفة وحدّقت إلى الصورة مجدداً. شعرت بنوع من الاحتيال في عيني آنا ممّا أثار في نفسها القشعريرة.

تخطّط آنا لشيء أكبر من مجرّد إنقاذ زواجها.

- عندما ستقرأ والدتي هذا سيجن جنونها.

قطع صوت لوكا القلق حبل أفكارها، وابتسمت. فلم تخف ابتسامتها عن عيني لوكا الحادتين، وسألها:

- لِمَ تضحكين؟

- لَا تبدو شخصاً يخشى ما ستظنه والدته.

- لماذا؟ أتعتقدين بأن المرء لا يكون رجلاً إلاّ إذا تجاهل ما يقوله أحباؤه؟ وأنه لا يفترض بي أن أكترث إن ألحقت العار بأمي وخيبت أملها؟ يجهل هؤلاء الصحافيون تماماً ما يكتبونه، وأنتِ لست الوحيدة في العالم التي تكترث لأهلها يا فيليس. والدتي مسنّة، وتريد رؤية ابنها متزوجاً، ومستقراً، وبالرغم من ذلك تغضّ النظر وتفهم بأنني لست جاهزاً بعد للاستقرار. ولكن عندما تعرف بأنني على علاقة بزوجة صديق للعائلة، ولا أبذل جهداً كافياً لإخفاء الأمر، عندها أسبب لها الأذى.

وراح يذرع الأرض ذهاباً وإياباً.

- الوقت في إيطاليا ليل الآن.

توقف في مكانه ونظر إليها مشككاً:

- وما دخل هذا بما يجري؟

- لم تصدر الصحف بعد، ما زال أمامك بضع ساعات للتوصل إلى حل ما، أو إلى حجة تقولها لعائلتك.

- لا أحتاج إلى بضع ساعات.

ولان وجهه الصلب، وارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه كما لو أنه يعتذر منها وتابع:

- لأنني توصلت إلى حلّ.

ابتسمت واستقامت في مكانها مهتمة:

- حقاً؟ ولِمَ لم تقل شيئاً؟

لم يجبها، بَل سار وجلس قربها وقرّبها منه، وهو يحدّق إليها بعينيه

الزرقاوين القاتمتين. تنحنح فحدّقت إليه فيليسيتي مستغربة ما يجري.

- يمكننا أنا وآنا أن نكون مجرّد صديقين، فلو أنني وقعت في غرامها لما كان من الصعب عليها التجاوب معي.

حاولت فهم كلماته لكنها لم تستطع، تابع:

- اسمعي! فيما يختصّ بالجوهرات والأمور المشابهة، لا أملك خبرة كبيرة، وعندما يتعلق الأمر بخاتم خطوبة أريد إتمام الأمر بشكل جيد.

لم يكن جرس الإنذار يقرع في رأسها، بل يصدح. اتسعت عيناها وتراجعت إلى الخلف تهزّ رأسها بقوة، فيما لوكا يحاول تحلية كلماته بابتسامة ولا أرق.

- لا، لا، مستحيل.

- ولكن هذا كفيل بحلّ مختلف المشاكل، ويمكننا قضاء وقت ممتع.

- وكم من الوقت الممتع سنقضي؟

وقبل أن يتمكّن من الردّ، أردفت:

- أطرح عليك سؤالاً منطقياً يا لوكا.

- ستنهين دراستك بالمراسلة وتسافرين عبر العالم برفقتي، فنحن نتفق تماماً معاً.

- وما أدراك بذلك.. فنحن لم نتعارف إلا منذ ساعات؟

- على الأقل تستطيعين قراءة الصحيفة بصمت. أتعرفين كم يصعب على النساء القيام بهذا؟ فهن لا يتوقفن عن السؤال: لوكا، ماذا سنفعل اليوم؟ لوكا، ماذا تريد أن تتناول على العشاء؟

ضحكت فأضاء وجهها:

- يسمّى هذا الشعور بعدم الأمان، لكن على الأرجح يحاولن التأكّد من البقاء معك، وبأنك ستعود إليهنّ.

- كنت لأفعل لو أنهن تركنني أقرأ الصحيفة بسلام.

- وأرى بأن هذه ستكون قاعدة من القواعد التي ستنصّها عليّ، فيما

لو أصبحت زوجتك.

جاء صوتها حاداً فعبس لوكا فيما تابعت فيليسيتي الكلام:

- عليّ تناول الفطور بصمت إذاً، وألا أسأل عن مخططات النهار.

قاطعها لوكا:

- أنتِ تحرّفين كلامي، وتحوليني إلى صورة وحش. سأعاملك بشكل رائع وأفضل بكثير من ذلك النذل ماثيو، ولن ينقصك شيء.

ورماها بابتسامة شيطانية فشعرت بانقباض في معدتها:

- سأكون عشيقة مدلّلة.

بالكاد ابتسم لكلامها، وردّ:

- ستكونين عشيقة وفي إصبعك خاتم. أتعرفين مدى قوة هذا؟ أتعرفين كم سيفتح لك هذا من أبواب؟

- لا أريد أن تفتح الأبواب لي، فأنا راضية بفتحها بنفسي يا لوكا.

عرفت أنها أثارت حيرته، ولكنها لم تهتمّ، فهي مركزة على شيء واحد وهو إخبار هذا الشاب اللعوب المدلّل أنه وللمرة الأولى في حياته، سيرفض طلبه.

- لا أمانع أن أعمل لتأمين لقمة عيشي، ولا أمانع أن أسهر طيلة الليل وأدرس. يصدف أنني أحب حياتي.

- لم يبد الأمر كذلك لي ليلة أمس، في الواقع، كنت لتمنحي أي شيء ليلة أمس لتغيير حياتك، وها هي الفرصة سانحة أمامك الآن. تزوجيني وسأعيد المنتجع إلى والدك. تزوجيني فينعم والداك بالسلام الذي يتوقان إليه.

توقف عن الكلام، وللمرة الأولى لم تردّ فيليسيتي فوراً بل لزمت الصمت وراحت تفكّر بعرضه السخي وهي غير مصدقة بأنها تفعل هذا.

قال برقة:

- تزوجي بي.

لمست في كلامه قوّة لم تعرف مصدرها، وحزماً أكدّ لها بأنّه لا يمارس سلطته في مجلس الإدارة فحسب. إذ وبالرغم من عدد الأسئلة التي تدور في خلدها، شعرت بنوع من الحماسة يجتاحها. ففكرة العيش مع لوكا، ورؤية العالم عبر عينيه، ومعانقته، وعشقه...

أضاف برقة:

- أنا لا أطلب منك التزاماً للأبد، بل فترة كافية حتى نسوّي أمورنا. إن وافقت، فلن تنقذي عائلتي فحسب بل ريكاردو أيضاً وستخلصينه من العار. أفهم أن هذا الأمر لا يعني لك شيئاً، ولكنني سأكون مديناً لكِ، وأجعل والدك مالكاً للمنتجع مجدداً. سأطلب من المحامي العمل على هذا صباح الاثنين.

- وفي النهاية ماذا سيحدث؟ هل ستتركني وترحل؟

- أنا التزم بوعودي.

كان أشبه بقطار يمرّ سريعاً ويكتسب زخماً أكبر مع تقدّمه. نظر إليها وتوضحت الفكرة في ذهنه، تخيلها تجلس على سريره، جميلة، رائعة، وحنونة. وكلّ ما أراده في تلك اللحظة هو الحؤول دون خروج تلك الشقراء الخلاّبة من غرفته ومن حياته. لم يعد شيء آخر يهمّه، لا شيء.

- لن يكون هناك من إدعاءات كاذبة حول الحبّ، ولا أطفال يعقدون الأمور، ولا وعود إلى الأبد، بل احترام وتفاهم متبادلين. فيليس، سأكون قوياً من أجلكِ، وسأعمل على إنجاح هذا الزواج.

شعر بضعفها، فرسم ابتسامة مثيرة على وجهه وقال:

- وأنا واثق مئة في المئة أنني أفضل بكثير من ماثيو خاصة من النواحي الحميمة.

كانت الكلمات على طرف شفتيها، وكان لوكا أيضاً قريباً منها، وضمّها إلى صدره وإلى حياته، وتلاشى كل عذر حاولت قوله في الهواء.

سألها:

- أهذه موافقتك؟

أيقظ سحره الإثارة فيها. إنه رجل يحوّل الأمور المعقدة فجأة إلى أمور غاية في السهولة، فتغيب كل القواعد. لطالما شعرت بشيء تجاه لوكا، فخالت أنه الحقد لكنها أدركت الآن أنها الرغبة، بل الحبّ.

سألها مجدداً بصوته الأجش المثير:

- هل وافقت؟

شعرت وكأنها تقع، تقع في شيء خطر ممنوع. وانتظرت استيقاظ عقلها ومنعها من هذا الجنون ومن الوقوع في النار.

ويا لها من نار!

لوكا هو الرجل الوحيد القادر على تحسين الأمور، وإنقاذها من نفسها، هو الوحيد القادر على منح عائلتها السلام الذي تستحقه. وفيما حدّقت إلى عينيه، اتخذ العالم فجأة معنى آخر.

يملك لوكا الجواب على الأسئلة كلّها.

- نعم.

بدت هذه الكلمة مثيرة ومخيفة في الوقت عينه. حاولت التمسك بحزام الأمان والصعود إلى البرّ والتراجع. ولكن شيئاً ما في عينيه شدّها إليه، حتى لم تعد تهتمّ سوى بالوقت الحاضر وبإطالة هذه اللحظة إلى الأبد.

- نعم يا لوكا، سأتزوّج بك.

٣ - ثلاث أمنيات فقط!

- أتريدين بعض العصير؟

ابتسم لوكا ووضع يده على كتف فيليسيتي وهي تنظر من النافذة، وقد وضعت في حضنها كتاباً كبيراً وادّعت أنها تقرأه، فيما ارتفعت الطائرة في الجوّ. ونظرت فيليسيتي إلى الخارج تتأمل ما خلفّته وراءها.

- أنا واثق من أنهم قادرون على تحضير كأسين من عصير الليمون البارد.

وتقطع صوته عندما استدارت نحوه ورأى شحوب وجهها فقال قلقاً:

- كنت أمازحك وأحاول رسم ابتسامة على شفتيك.

- أعرف.

ومدت يدها لتتناول محرمة ورقية، لكنها عادت فغيّرت رأيها. لقد ولّت أيام السفر في الدرجة الاقتصادية والمحارم الورقية. فاكتفت بتناول المنديل الحريري الذي وضعه لوكا في يدها، وأصدرت صوتاً وهي تمسح أنفها. استدار نحوها لوكا متفاجئاً وابتسم يخفف من حزنها.

- يصعب عليّ تركهما.

- ولكنك لا تتركين عائلتك بشكل نهائي، يمكنك العودة غداً أو الأسبوع المقبل. فالعالم مكان ضيّق، وأنت لا تبعدين عنهما سوى مسافة يوم وليلة. لن أبعدك عن عائلتك، فيليس، فأنا أعرف تماماً مدى أهميتها بالنسبة لكِ.

أومأت ولكنها لم تستطع أن تتكلّم لأنها أوشكت أن تبكي، وآخر ما

تريد فعله هو البكاء أمام لوكا.

- ما إن أعود إلى العمل سأتحدث إلى المحامي وأرتّب أمر عودة المتتجع إلى والدك ولكن الأمر قد يستغرق بعض الوقت.

نظرت إليه فيليسيتي بحدّة والشك يملأ عينيها. بدا لها وللمرة الأولى منذ لقائهما بأنه يحاول المماطلة وكسب الوقت. إلا أنه سرعان ما تدارك الوضع وطمأنها.

- أنت تعرفين كيف يتصرّف المحامون. لا شيء يحدث بسرعة هذه الأيام، أنت تعرفين بأن نواياي صادقة، فقد وعدتك.

ولكن أيكفي وعده؟ فهي لا تملك وعداً مكتوباً بل كلاماً ووعوداً. وكيف يمكن الاستناد إلى هذا في المحكمة؟

وأية محكمة هذه؟

- ليس هذا ما يزعجك وحسب؟

لم تعلّق فيليسيتي فوراً، بل تنهّدت ثم قالت:

- ألا يكفي بأنني أهاجر لأكون معك؟

- بلى.

ومرّر يده على عينيها ومسح دمعة ترقرقت على طرف رموشها.

- هل تتذكرين أخاك جوزيف والرحلة التي قمت بها إلى روما برفقته؟

كيف عرف؟ كيف تمكّن أن يعرف؟ لا يضاهي عمق ألمها من كلماته القاسية إلا عمق تبصّره. ولكن وبالرغم من هذا تراجعت إلى الخلف، وخبأت ألمها، وأجبرت نفسها على الابتسام.

- من السخف إقامة مقارنة بين الأمرين، فالأمر الآن مختلف تماماً.

سألها بجدية:

- لِمَ تفعلين هذا دوماً؟ لِمَ تبعدينني دائماً؟

- أنا لا أفعل.

هزت فيليسيتي رأسها بحزم وأرادت تغيير الموضوع. شكّل هذا الأمر

بينهما مؤخراً نوعاً من التوتر. افترض لوكا، أنه الآن، وبعد أن وضع خاتماً حول إصبعها يستطيع معرفة ما يجول في فكرها، ولكن فيليسيتي رفضت ذلك باستمرار. فأفكارها ملك لها ولا يحقّ للوكا معرفتها.

- ترفضين السماح لي بالتدخّل ومعرفة ماذا يجول في فكرك. أنت مستقلة جداً، ولا تجعليني أعرف بِمَا تفكرين.

ردّت فيليسيتي بحزم:

- أنا لا أخفي عنك شيئاً، وصدقني لا يجول في فكري شيء مثير للاهتمام.

وضعت يدها على رأسها لبرهة، وأطلقت تنهيدة عميقة، ثمّ تناولت قائمة الطعام التي ناولها إياها المضيف وادّعت القراءة. حاولت إلهاء نفسها بالأطايب المقدّمة على لائحة الطعام، ولكنها لا تتوق إلى شيء سوى إلى الشخص الجالس بقربها.

- يصعب عليّ فقط وداع عائلتي.

وضع يده الدافئة على خدّها بحنان وقوّة:

- ألست عائلتك الآن؟ ألا أستطيع إسعادك؟

كم أرادت أن تقترب منه وتدفن رأسها في صدره القوي، وكم أرادت أن تصدّق كلامه، ولكن كيف عساها تفعل؟

كلما حاولت الحصول على معلومات، وإعطاء بعض المنطق لما يجري، ورسم نوع من خطة للزواج، يردّ عليها بحركة من معصمه ويقول لها:

- هذه كلها تفاصيل، سأهتم بكلّ هذا، لا تقلقي واستمتعي بالوقت الحاضر.

لكن الوقت الحاضر وحده ليس كافياً. فتذوّق الجنة جعلها تتوق إليها أكثر فأكثر. وأصبحت الأسئلة التي تتبادر إلى ذهنها أشدّ إلحاحاً الآن.

صحيح أن لوكا قد وفى بكلمته، فمنذ ليلة توزيع الجوائز لم ترَ ماثيو مجدداً، بل سمعت من طاقم العاملين في الفندق عن خروجه المذلّ من

الفندق، وبالرغم من أن هذا هو ما رغبت به منذ البداية، فما زال يثير أعصابها.

يملك ماثيو عقداً وأسهماً، ولكن هذا لم ينفع شيئاً مقابل قوّة لوكا وجبروته. وماذا تملك هي؟

نظرت إلى الماسة الكبيرة في إصبعها، وراحت تفكّر. فبالرغم من إدعاء لوكا عدم المعرفة بالمجوهرات، جاء الخاتم الذي انتقاه رائعاً. كان يحتوي على حبة ماس واحدة كبيرة لماعة.

- تحدثي إليّ يا فيليس، فأنا أكره الطيران.

- أنا متعبة يا لوكا.

تنهدت وأراحت رقبتها على الكرسي وأغلقت عينيها وتاقت إلى دقيقتين من الراحة، إلى فرصة لتستجمع أفكارها وترتّبها، لتفهم سيل المشاعر التي تجتاحها وتخنقها. فالزواج من لوكا أمر مرهق.

رائع، ومثير ومنعش، صحيح! ولكنه مرهق أيضاً...

الحياة مع لوكا عبارة عن ركض دائم، ويصعب عليها أحياناً فهمه لكنها تحاول. عبوس وتقطيب للجبين ينتهي دوماً في السرير. لم يستطع أن يفهم بأن فيليسيتي بحاجة إلى بعض الوقت لنفسها، عشر دقائق في الحمام بمفردها، أو قراءة كتاب من دون الاضطرار إلى إخباره عن كل ما يجري فيه.

كان الأمر أشبه بالعيش مع فتى مدلل في الثانية من عمره. طفل مولود حديثاً، يستيقظ كل ساعة ويتنظر منها الاهتمام والرعاية.

لم يدم انزعاجها وقتاً طويلاً. فحاجتها إليه لم تكن أقل من رغبته بها أبداً.

لم ترغب الانفراد بنفسها الآن، ولا الاستلقاء في حوض الاستحمام بمفردها فيما لوكا مستلق في الغرفة المجاورة، وما الفائدة من القراءة إذا كان لوكا هو الكتاب الذي تحيا أحداثه، هو البداية، والوسط، والنهاية؟

- لم تخبريني يوماً ماذا جرى مع جوزيف؟

اتسعت عينا فيليسيتي وعادت فسلطّت انتباهها إلى لائحة الطعام. ولكن عندما أخذها من يدها، عرفت أنه لن يتوانى قبل أن تجيبه وتابع الكلام عن هذا الموضوع المؤلم.

- يبدو أن والدك يرفض التطرّق إلى هذا الموضوع.

أومأت.

- يستاء إن تحدّثنا عن الموضوع ويقول بأن الكلام لن يعيده إلينا.

- الكلام مفيد، فلِمَ لا تجرّبينه؟

هزت رأسها وحاولت استعادة لائحة الطعام ورفض عرضه. ولكن عندما نظرت لبرهة إلى عينيه ورأت مدى اهتمامه، وتفهمّه، لم تستطع صرفه. وبالرغم من انزعاجها، شعرت بالامتنان في قرارة نفسها. شعرت بالامتنان لتبصّر لوكا وإصراره.

شعرت بالامتنان لأنها وجدت شخصاً تتكىء عليه وتتحدث إليه.

- توفي في روما.

كان الصمت الذي تلا هذه العبارة مزعجاً، فأمسك لوكا بيدها وهي تجاهد لتجد كلمات تلخص هذا الجزء الصعب من حياتها.

- كان يعاني من سرطان الجلد. ظلّ يعاني منه فترة طويلة، ولكن الأمور بدت جيدة، وقال الأطباء إن حدّة المرض قد خفّت، وإنه تخطّى المرحلة الأسوأ، لكنهم كانوا مخطئين.

ابتلعت ريقها بصعوبة وتابعت:

- لم يكن هناك شيء يستطيعون فعله، حاولنا كل شيء، وفي كل مرة كنّا نحصل على الإجابة عينها: استمتعوا بالوقت المتبقيّ له. ثمّ عرفت بشأن العلاج في الولايات المتحدة، ولكن تبين أنه لم يكن شافياً.

- ولهذا السبب باع والدك المنتجع السياحي.

أومأت فيليسيتي، وما إن لاحظت سمات الذنب تبدو على وجهه حتى

قالت بلطف:

- وكيف عساك تعرف ما يجري يا لوكا؟

- أنت محقة، ولكنني لم أشعر يوماً بصواب ما أفعله. فعندما وضع المنتجع برسم البيع، لفت ماثيو انتباهي إليه. فقد كان عندها مساعد مدير في فندق في ملبورن، وعندما عرض عليّ إلقاء نظرة عليه، فكرّت بأن الزبائن الذين يقصدونُ أستراليا للعمل لبضعة أسابيع يستطيعون قضاء عطل نهاية الأسبوع فيه، ويستريحون من الفنادق الرسمية، ويلعبون الغولف والتنس. كانت فكرة جاءتني وليدة اللحظة. ولم أكن متأكداً من رغبتي بشراء المنتجع فقدّمت عرضاً بخساً جداً وتوقّعت بعض المفاوضات، ولكن عندما لاق العرض الأول الذي تقدّمت به القبول، استمريت بالفكرة.

- كانت مجرّد صفقة عمل.

لم يكن هناك من مرارة في صوتها بل تقبّل للواقع ليس إلاّ، وتابعت:

- كان يفترض بوالدي أن يطلب سعراً أعلى. ولكنه كان يائساً جداً وبحاجة إلى المال. وقد عرض المنتجع للبيع عدة أشهر وما من شارٍ واحد له.

- يا ليتني عرفت!

هزت فيليسيتي رأسها.

- أنت رجل أعمال يا لوكا، لا جمعية خيرية، وأنت لم ترتكب أي سوء، لقد أدركت هذا الآن.

كانت تقول الحقيقة، فمعرفة طريقة تفكير لوكا، ورؤيته يدير أعماله قد فسّرت لها الكثير من الأمور.

- على كل حال، ذهب جوزيف إلى الولايات المتحدة برفقة صديقته وخضع للعلاج، وعندما عاد بالكاد تعرّفنا إليه.

- هل زادت حالته سوءاً؟

- آه لا!

ورآها تبتسم وقد أشرق وجهها، فذكّره بالصبح في قريته، ووجد نفسه يبتسم أيضاً لكلامها.

- كان الأمر أشبه باستعادته. ذهب إلى الولايات المتحدة مريضاً جداً وهزيلاً، طيف للرجل الذي أحببناه، ولكن عندما عاد... آه يا لوكا، كان قد كسب بعض الوزن، واكتسب طاقة، وحيوية، وعطشاً للحياة. كان المشهد رائعاً، أحسن والدي العمل عندما باع المنتجع، فقد أعاد لنا المال الذي دفعناه جوزيف لفترة. لقد عاش كل لحظة وكل يوم كما لو أنّه الأخير. اصطحبته صديقته كايت إلى باريس....

لاحظ الابتسامة تختفي عن وجهها وأراد ضمّها بين ذراعيه، وحمايتها من الألم. ولكن حدسه نصحه بالانتظار فجلس صامتاً، وهو يمسك بيدها ويستمع إلى القصة، والطائرة تكتسح الفضاء، وهما عالقان في مقصورتهما بعيداً عن العالم.

- اضطرت كايت للعودة إلى عملها، إذ كانت قد أخذت عطلة قصيرة. إلا أن جوزيف أصرّ على رؤية روما، فقد كان يعشق الفن.

- وماذا عنكِ؟

ضحكت فيليسيتي:

- لا أبداً، أتمنى لو أنني أحبّ الفن ولكن هذه الكلمة لا تصفني ولا بأي شكل من الأشكال.

- هذا ليس مهماً، لعلك....

وابتسم وهزّ رأسه يبحث عن الكلمة التي تصفها. ولوهلة وفوق رمال استراليا الحمراء توقف الزمن لبرهة، ولم يعد يسمع سوى هدير محرّك الطائرة، فأيقن أنه لا يعاني من نقص في المفردات يمنعه من الكلام، ولكن فيليسيتي هي السبب الرئيسي في ذلك. لا يمكن تلخيص أي شيء فيها بكلمة واحدة أو عبارة حتى... قال بوهن:

- إذاً جئت إلى روما برفقة جوزيف؟

أومأت:

- كان الأمر رائعاً، زرنا المعارض، والفاتيكان، والكنائس، وجلسنا على الرصيف واحتسينا القهوة....

ابتسم لوكا وقال:

- لن نستطيع القيام بهذا في هذا الوقت من العام فالطقس بارد. وماذا فعلتما ايضاً؟

- كل ما يفعله السواح، تناولنا البوظة، ورمينا النقود في النافورة الثلاثية.

وتلاشت ابتسامتها.وظهر الألم في عينيها وهي تتابع كلامها:

- رفض جوزيف رمي النقود في النافورة، فقد قال لنا المرشد السياحي إنه إن رمينا نقوداً فيها....

أنهى لوكا الجملة عنها:

- نعود إلى المدينة الأزلية.

- قال جوزيف إن هذه الأمنية ستذهب هباء.

- ولكن من الواضح أنك رميت النقود.

- رميت ثلاثة، قال لي المرشد: واحدة للعودة إلى هنا، والثانية لأتزوج من رجل إيطالي.

واحمرت وجنتاها وهزت رأسها ممازحة، فاتخذت الحركة البريئة منحى آخر الآن، وتابعت:

- والثالثة كي أحيا سعيدة طيلة أيام حياتي.

ضحك لوكا وقال:

- تختلف الروايات حول هذه الأسطورة، فقد كانت والدتي تقول: قطعة نقود واحدة للعودة، واثنتان للزواج، وثلاثة للطلاق.

فكرت فيليسيتي أنه دائماً يتصرّف هكذا. فكلّما خطيا خطوة إلى

الأمام معاً، يخطو هو اثنتين إلى الخلف بسرعة. ويخفي كل ومضة حميميّة بحديثه عن انفصالهما، كما لو أنه غيّر رأيه فجأة وسئم منها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

أعادت فكرها إلى موضوع الحديث وأجبرت نفسها على إكمال القصة، ولكنها لم تعد تحتمل المشاعر التي أثارها في نفسها، وتراجعه المتعمّد عقب بناء أي جسر بينهما.

- لقد توفي يا لوكا.

أخذت لائحة الطعام ونظرت إليها وأدركت أن عينيه منكبّتان عليها، وقالت:

- هذا كل ما تحتاج إلى معرفته.

- ما إن نصل إلى هناك ستشعرين بتحسّن.

تركت محاولته مؤاساتها أثراً عليها فتوانت عن رميه بردّ قاس. قال:

- عندما نصل إلى روما، سيقلّنا سائقي إلى ضيعتي. يتوق الجميع إلى التعرّف إليكِ.

استفسرت فيليسيتي وقد سرّت لتغيير الموضوع:

- لديكَ أختان وأخوان صح؟

- وأولادهم طبعاً، وسيكون هناك أيضاً أنسباؤهم وخالاتي وأخوالي، وأظن بأن والدتي قد دعت بعض أصدقاء العائلة.

- أنا؟

أومأ لوكا:

- وريكاردو.

- لن تكون حفلة عشاء حميمة إذاً.

- ليس تماماً، ولكننا لسنا مضطرين للبقاء لفترة طويلة، فما إن نصل ونسلّم على الجميع، سأصطحبك إلى منزلنا.

منزلنا!

يجعل الأمر يبدو سهلاً جداً، كما لو أنهما عروسان حقيقيان يخطوان الخطوات الأولى من حياتهما معاً، ويتشاركان المنزل، والأحلام، والتطلّعات.

اعترفت فيليسيتي:

- أتوق لهذا. ربما ما إن نصل إلى هناك سيبدو الأمر أكثر واقعيّة. كان الفندق جميلاً، ولكن سيسرني أننا سنبقى بمفردنا أخيراً. لا أصدق بأنني أتوق للأعمال المنزلية مجدداً.

نظر إليها لوكا مرعوباً:

- لن تضطري إلى فعل شيء، سيهتم الخدم بذلك.

غرقت في مقعدها وتنهدت، لقد سئمت الخدم والعمال. أرادت الحصول على لوكا لها وحدها، وقضاء الوقت بمفردها مع الرجل الذي تحبه.

تحبّه!

كيف انسابت الكلمة بسهولة في فكرها؟ ويا لعواقبها الوخيمة!

لقد أحبّته منذ اللحظة التي رأته فيها، وقد تلت عهود الزواج بصدق أخافها، ولكن لوكا لا يريد حبّها. لوكا يريد حلاً مؤقتاً، وهو لن يلتزم إلاّ بنذر الشرف الذي تعهّد به. يريد لوكا زوجة يستطيع التخلّص منها بسهولة لاحقاً، والحبّ ليس عنصراً أساسياً في هذا الزواج.

وهذا السرّ عليها الاحتفاظ به لنفسها.

قطع لوكا حبل أفكارها وقال مبتسماً:

- قد تشكّل لنا روز مشكلة، فهي مدبرة منزلي وتعمل لدى العائلة منذ سنوات. فهي دائماً....

تقطع صوته وبدا منزعجاً، فأكملت فيليسيتي الجملة عنه:

- تصعّب الأمور على صديقاتك. يمكنك قول هذا يا لوكا، أعرف تمام المعرفة بأنني لست المرأة الوحيدة التي شاركتك سريرك.

- أنا آسف، لكنها ستقبل بك في النهاية. إن كنت تظنين بأنني أفتقر للحساسية فانتظري ريثما تتعرفين إلى روزا. وقد تناديك آنا، ليس عن قصد طبعاً، ولكن تلتبس عليها الأمور أحياناً، فهي لم تعد شابة.

تنهدت فيليسيتي:

- فهمت قصدك، لن يكون الأمر سهلاً كما توقعت.

- هذا هراء، فيليس، ستكونين رائعة، وسيحبونك جميعهم.

- أنا لا أجيد الإيطالية حتى، وقلت لي إنهم بالكاد يتكلمون الانكليزية.

- يتكلم كل من آنا وريكاردو الانكليزية.

حاول لوكا تهدئة روعها لكنه لم ينجح في ذلك، وزاد من سوء شعوره تلك النظرة التي رمته بها.

- من المؤكد أنك تعلّمت بضع كلمات بالإيطالية الآن، فقد مضى على وجودنا معاً أسبوعان.

- بضع كلمات ولكنني واثقة من أنه لا يفترض بي تكرارها.

احمر خجلاً واقترب منها وهمس في أذنها، فداعب نفسه الناعم أذنها.

- هذا الكلام يا حلوتي مخصّص لك وحدك.

- آمل هذا.

خرجت الكلمات من فمها قبل أن تتمكّن من ردع نفسها، رأته يعبس وسمعت تنهيدته وتمنّت لو تستطيع العودة عمّا قالته.

- ماذا تقصدين بكلامك هذا؟

- لا شيء.

تنهدت فيليسيتي وحاولت إبقاء صوتها منخفضاً، تابعت:

- على كل حال أنا لا أعرف سوى كلمتين بالإيطالية «كافيه لاتيه» وهما ما أرغب بالحصول عليه الآن!

ضغط على زر الاستدعاء فتجاهلت كونه يضغط بقوة على يدها،

ونظرة التساؤل بادية في عينيه. رفض لوكا ترك الموضوع لحاله.

- فيليس، أنا لن أتعمّد إيذاءك يوماً، لا بدّ أنك بتّ تعرفين هذا الآن.

حضرت مضيفة الطيران وابتسمت وهي ترفع الملاءة قليلاً فوق ركبتي لوكا. وبطبيعة الحال، انحنى قليلاً إلى الأمام ليسمح لها بتسوية الوسادة خلف ظهره. وخطر ببال فيليسيتي أنه يتصرّف هكذا بحسب العادة لا لأنه مسافر في الدرجة الأولى. تباً! فملاءتها تلامس الأرض ولا أحد ينتبه، فاغتاظت.

شعرت وكأنها تخرج من الشرنقة. كانت الأسابيع الأخيرة أشبه بدوامة، ولكنها شعرت بالأمان وكأنها ملفوفة بعباءة آل سانتانو، محمية. كانت ترى سيارات تظهر من العدم وتأخذها إلى منزل أهله، ولوكا يهتم بأدق التفاصيل. حتى زواجها رُتب بسهولة، فلم تضطر سوى لارتداء فستانها والنظر إلى نفسها في المرآة.

أما الآن...

أزيلت الشرنقة الآمنة، وقد ارتعبت لرؤية الشمس، أو بالأحرى عدسات كاميرا مصور لاقاهما في المطار. لقد وصلت إلى عالم لوكا الآن. وقريباً جداً ستملأ صورها الصحف ويكتب الصحافيون عنها تعليقات غريبة.

ببساطة، لم تكن تنتمي إلى عالم لوكا.

- هل أستطيع الحصول على فنجان قهوة بالحليب من فضلك؟

- نعم فوراً.

لم تبارح ابتسامة المضيفة وجهها وهي تنظر إلى لوكا، لكنها سرعان ما غابت عندما نظرت إليها. وأدركت فيليسيتي فجأة أن النظرات الفضولية التي رأتها هذا الصباح، والصحافيون المتهافتون لم يكونوا يهتمون بها، بل بلوكا. فسحره وجاذبيته لا يفعلان فعلهما عليها وحدها بل على كل من

يراه.

فحتى ولو جلست أشهر الفنانات إلى جانب لوكا، فلن تضاهيه في لفت الأنظار. سحبت ملاءتها بنفسها ورجعت إلى الخلف ونظرت إلى خاتم الألماس في يدها وشعرت ببعض الطمأنينة.

قال لوكا بإلحاح:

- فيليس، لم تجيبيني، قلت لك إنني لن أتعمّد إيذاءك أبداً.

- ليس عمداً.

أحضرت القهوة التي طلبتها بسرعة البرق مع بضع حبات من الشوكولا وبسكويت باللوز.

اختنقت فيليسيتي من رائحة العطر الذي تضعه مضيفة الطيران. ونظرت من النافذة ورأت كل ما هو مألوف بالنسبة إليها يختفي تدريجياً فشعرت بحنين كبير إلى المنزل، ولم تكن واثقة من قولها هذه الكلمات بصوت مرتفع أو لا.

- يخالجني شعور بأنك عاجز عن إيقاف نفسك.

٤ - عالمه الساحر.. المخيف!

اعتبرت فيليسيتي الدخول إلى منزل عائلة سانتانو أشبه بالضغط سهواً على الزر الخطأ في جهاز التحكم والوقوع على فيلم غربي، غير مترجم موسيقاه عالية وغريبة.

انهالت عليها نساء شعرهن رمادي أو أسود بوابل من القبل طبعت على خديها، ثم رحن يبعدنها قليلاً عنهنّ ويتأملنها عن بعد وينظرن حتى إلى يديها كما لو أنها ترتدي فستاناً باهظ الثمن. ملأن صحون الطعام وسكبن كؤوس العصير، وكلما قالت إنها اكتفت سكبن لها المزيد.

طلبت فيليسيتي بنبرة منخفضة:

- هل أستطيع الحصول على بعض الماء؟

ولكن سرعان ما أتينها بالعصير مجدداً.

- لا يفهمن أبداً ما تطلبينه.

سمعت صوتاً عميقاً، مريحاً، ووضع أحدهم في يدها كوباً من الماء البارد أخذته بامتنان وارتشفت منه جرعة، وقالت:

- كل ما أردته هو كوب من الماء.

- وكل ما يريدونه هو قطعة منكِ، أظن أنك حققت نجاحاً يا فيليس. أخشى أنهم سيحتكرونك الليل بطوله.

- لا بأس.

ابتسمت فيليسيتي ولم تكن تمانع ما يجري، كانوا جميعهم صاخبين، ومبالغين في ردّات فعلهم. لكن فيليسيتي أدركت فوراً أنهم رائعون.

www.elromancia.com

المشكلة الوحيدة هي إن كانوا لا يفهمون معنى كلمة «ماء»، فكيف ستتمكن من التحاور معهم؟

غمزها لوكا...

- لعدم فهمهم الانكليزية حسنات عديدة، إذ نستطيع الكلام عن أي موضوع نريده. ابتسمي فقط وسيبادلونك الابتسامة.

- ماذا يجري؟

كان الحشد يجتمع مجدداً، وسُمع قرع سكين أو ملعقة على طرف كوب بادر به شخص ما، وحذا الجميع حذوه. استدارت نحو لوكا تتساءل عمّا يجري وهو يقف قريباً منها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساحرة.

- إنه تقليد إيطالي!

- ما هو؟

- كلّما قرع أحدهم على كأسه علينا تبادل العناق، سيستمر هذا التقليد الليل بطوله.

- الليل بطوله؟

طوّقها بذراعه، وانحنى ينظر إليها فنظرت بدورها إليه بخجل. وفيما تلاشت صيحات الحاضرين قرّبها منه كثيراً وعبّر لها علناً عن عاطفته الجياشة.

- الليل بطوله.

قال هذا وهو يبعدها قليلاً عنه، بصوته الأجش، وعيناه المتسعتان إثارة. كانت رائحته دافئة ومثيرة، ولمسته قوية.

- ألا أستحق أن تعرّفني، فلقد قمت باختيار خاتم الزواج.

قطع هذا الصوت عليهما سحر اللحظة، ومن دون أن تستدير عرفت فيليسيتي هوية الشخص الذي يتكلّم.

استدارت تبتسم وتواجه غريمتها، وهي مصمّمة على التصرّف ببرودة وتقبّل ماضي لوكا تماماً كما تقبلّ ماضيها. ولكن فيليسيتي لم تكن

متحضرة لرؤية كل هذه الأناقة وهذا الجمال فالصورة في الصحيفة لم تمنح آنا حقّها، ولم تبرز مفاتنها جيداً. خصل الشعر الأسود الذي يغطي رقبتها الطويلة، وصدرها الجميل الذي يظهر قليلاً من خلال فستانها المخملي الأسود، وخصرها الرفيع. شعرت فيليسيتي بوجهها يشحب وهي تحاول مقارنة نفسها بتلك المخلوقة الخلابة.

- فيليسيتي، أقدّم لكِ آنا.

لم يتأثر لوكا، وبدا صوته عادياً وابتسامته ثابتة، ولكن فيما انسابت يده من على كتفيها ووضعها على ظهرها، يدفعها قليلاً إلى الأمام ليؤدي مراسم التعريف، استطاعت أن تشعر بتوتره. ومن صوت الهمس في الغرفة، عرفت فيليسيتي أن من حقها الشعور بالتوتر.

- تشرّفنا.

وتابع لوكا التعريف.

- وريكاردو، زوج آنا وصديقي العزيز.

- سررت بالتعرف إليك.

تفاجأت فيليسيتي لرؤيتها ريكاردو جيوردانو، فقد ظنت أنه طيف شاب لعوب، ولكن إذا بها ترى رجلاً بهي الطلعة، وسيم على الرغم من سنّه. كان شعره بمعظمه رمادي اللون مقصوص بطريقة رائعة، وبالكاد لمحت خط تجاعيد واحد على وجهه. إنه طويل القامة بمثل قامة لوكا تقريباً، وعيناه ساحرتان ومثيرتان وقد أذابتا حتماً قلوب نساء كثيرات في شبابه.

- جميلة.

لم يحصل سلام رسمي باليد هذه المرة، ولا تبادل للقبل التي بدأت فيليسيتي تعتادها، بل اقترب منها ريكاردو وقبّل خديها بكل لطف.

- ذوقك رائع يا لوكا.

- وأنا أيضاً.

أضافت آنا ورفعت يد فيليسيتي وراحت تنظر إلى الخاتم، ثم تابعت:

- لقد استمتعنا كثيراً عصر ذلك اليوم الذي اشتريناه فيه، صح يا لوكا؟

وانخفض صوتها واشتدّ خشونة. وقفت فيليسيتي مكانها تنظر إليها باحتقار فيما حدّقت آنا إلى الماس، وقد ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتيها، ورمت فيليسيتي بنظرة ملؤها الحقد.

همست:

- طبعاً أراد لوكا استعجال الأمور، فهذه طبيعة الرجال، ولكنني رفضت وقلت له: لا يا عزيزي، علينا أن نأخذ وقتنا، فأنا أعرف ما تحبّه النساء وعلينا إنتقاء هذا الخاتم بشكل صحيح. وهذا ما فعلناه!

بدت نبرة الانتصار واضحة على صوتها.

- نعم صحيح.

قالت فيليسيتي بهدوء واقتربت أكثر من لوكا، وارتاحت عندما وضع يده على كتفيها وقرّبها منه.

ووضعت فيليسيتي كأسها على صينية يحملها نادل مرّ بالقرب منهم وقالت وقد رمت آنا بنظرة سوداء مماثلة لتلك التي رمتها بها:

- شكراً لأنك اخترت لي الخاتم، فأنا أستمتع كثيراً بوضعه.

* * *

وجب أن تكون هذه الليلة رائعة، فقد بذلت عائلة لوكا جهداً لذلك، ولكن فيليسيتي شعرت وكأنها مسجونة تحت تأثير نظرة آنا. واستحالت الألوان والأضواء كلّها واحدة، فلم يبق أمامها سوى عيني آنا اللتين لا ترحمان.

أرادت أن تضغط على زر التوقّف، وتتمالك نفسها من أجل لوكا، وتطلب منه أن يأخذها إلى منزله، حتى تنظّم أمورها، أرادت بعض الطبيعيّة في العلاقة.

- هذا عمل شاق، صح؟

ضبطها ريكاردو في لحظة لم تكن منتبهة فيها، ورآها تتنهد تنهيدة عميقة.

- جميعهم رائعون.

ابتسمت فيليسيتي مجدداً. فقد أدى لوكا دور العريس المتفاني أمام عائلتها، ومن العدل فقط أن تتصرّف معه كما تصرف معها.

- أنا متعبة بعض الشيء بعد هذه الرحلة الطويلة، بيد أنني أشعر بالذنب لأنني أشتكي، فقد نمنا معظم الرحلة. لم أصدّق بأن هذه المقاعد تتحوّل إلى أسرّة.

أدركت كم بدت خرقاء بكلامها عن روائع السفر في الدرجة الأولى أمام رجل معتاد عليها، فتنهدت واحمرت خجلاً. أما ريكاردو فبالكاد ابتسم لها.

- ولكن ما من شيء أفضل من سرير المنزل خاصة عندما يصبح المرء في مثل سني.

وابتسم لها ابتسامة محببة وتابع:

- أنتِ لست معتادة على السفر صح؟

هزت فيليسيتي رأسها إيجاباً وأدركت أنها استلطفت ريكاردو:

- لا تعدّ الرحلات التي قمت بها مع عائلتي أحياناً من ميلبورن إلى كوينز لاند، ولا الرحلة الوحيدة التي قمت بها إلى أوروبا بالشيء الكثير.

- يمكنك أن تعتادي على السفر بسرعة، هذا طبعاً إن شئت ذلك.

لاحظ ريكاردو عبوس فيليسيتي وتابع:

- يعيش كل من لوكا وآنا حياة تنقّل دائم وقد يكون من الصعب أحياناً مجاراتهما. أما أنا، فأحبّ البقاء هنا، مع حقول العنب التي أملكها.

- حقول العنب؟

- إنها كأطفالي.

إنه رجل لطيف، ولعلّها فهمت الأمر بشكل خاطىء. فهو ليس بمغفّل، وقد كان حتماً رجلاً جذاباً ومثيراً في شبابه. وربما آنا مغرمة به. ولكن ما إن بدأت تسترخي، وترى بأن الليلة لم تسر بشكل سيء، حتى قال لها ريكاردو:

- أعتذر لأن آنا أزعجتك منذ قليل وهي تتحدث إلى لوكا بهذه الطريقة. لم يكن تصرّفها ملائماً.

- لم تكن... لم تفعل... أعني أنها لم تزعجني.

- لقد فعلت وكانت تقصد هذا.

تحدّث بالنبرة نفسها التي يتحدّث فيها لوكا، فأخفضت فيليسيتي عينيها وهي تجهل ما عليها قوله. فهذا الرجل هو زوج آنا.

- سأتحدث إليها ما إن نصل إلى المنزل. أنت سيدة لطيفة يا فيليسيتي ولا أريد رؤيتك محرجة. يتوجّب على آنا ولوكا أن يتعلّما كيف يتصرّفان بتحفّظ أكبر.

هزت فيليسيتي رأسها غير مصدّقة:

- تحفظ؟ ما من شيء يجري بينهما.

- آه، يا فيليسيتي!

لاحظت نظرة الشفقة في عينيه، فهزّت رأسها بقوة أكبر وقالت:

- أنت مخطىء، لم يحصل شيء في الفندق، لا شيء.

ولكن الشكّ بدا واضحاً في صوتها، فكيف عساها تقنعه وهي غير واثقة ممّا تقوله.

كانت العينان السوداوان تحدّقان إليها، وتراقبان كل حركة تقوم بها:

- هل اختارت آنا لكِ الخاتم؟ طبعاً لا، أنت تعرفين هذا، وأنا أيضاً أعرفه. كان أداء آنا جزءاً من المسرحية. المسرحية التي نعيشها جميعنا. ولكن لوكا رجل طيب يا فيليسيتي، وهو لن يسبّب لك العار أو الحزي.

فأنت زوجته.

كان ريكاردو يبتسم، ويحاول تعزيتها، لكنه لم ينجح في ذلك، رغبت بوضع يديها على أذنيها كيلا تسمع المزيد، وتحمي نفسها من الحقيقة التي لا تستطيع تحمّلها.

- عليك أن تتعلّمي أن تنظري في الاتجاه المعاكس.

- ها أنت.

عاد لوكا، ولكن رؤيته هذه المرة لم تخفّف عنها. إنها بحاجة إلى بعض المجال لتفكّر. قال:

- تبدين متعبة.

رأت نتف الثلج على شعره وأحسّت به بارداً. أخفض عينيه نحوها بقلق، وأبعد بلمسة ناعمة خصلة شعر عن وجهها ورفع ذقنها عالياً كما لو أنه يظهر للعالم كلّه بأنه يكترث لأمرها.

- أنا كذلك.

جاء صوتها عالياً وكان قلبها يخفق بقوة إلى حدّ أنها خشيت أن يسمع دقات قلبها، وقالت:

- أين كنت؟

رماها بنظرة استفهام:

- أتحدث إلى أمي! وأين ظننت أنني سأكون؟

- تركت كأسك على الشرفة يا عزيزي.

وافتهما آنا، وتحدثت بصوت مثير. وحتى ولو أرادت ذلك، لم تستطع فيليسيتي عدم رؤية نتف الثلج على شعرها، وملاحظة الطريقة المثيرة التي قدّمت فيها الكأس إلى لوكا، ناهيك عن نظرة الأسى في عيني ريكاردو وابتسامة الشفقة التي وجهّها نحو فيليسيتي.

كانت الأمور تعود إلى نصابها، ولم تحبّ فيليسيتي ما رأته.

- خذني إلى المنزل يا لوكا.

www.elromancia.com

كان صوتها حاداً، ولو لم تكن الأرض تدور من حولها لرفضت تأبّط ذراع لوكا، والدعم الذي يعرضه عليها، ولكانت خرجت من الغرفة بمفردها.

- يقول ريكاردو بأن عليك أنت وآنا التصرّف بتحفظ أكبر.

كان يقود السيارة ويسلك طرقات ضيقة محفورة بين الجبال، والوادي العميق بادٍ في ضوء القمر على جهتي الطريق. ولكن وبالرغم من أنه يقود بسرعة على هذه الطريق الخطرة، لم تخف، فقد كان عقلها يستعيد كلام ريكاردو ويحاول إرشادها إلى الطريقة الأفضل للتعامل مع هذه المسألة. نظرت إلى جانبها فرأت لوكا وانقطعت أنفاسها لمدى وسامته. حدّقت إلى أنفه المستقيم، وخديه المنحوتين، وعينيه اللوزيتين، وتمنّت لو أن وسامته لا تسحرها.

- يجهل ريكاردو ما يتحدث عنه.

رفع صوت الراديو وراح يدندن مع الموسيقى، غير متأثر بحوارهما، إلا أن فيليسيتي أصرّت على الحصول على أجوبة.

- بدا واثقاً من كلامه. اسمع يا لوكا، أعرف بأن زواجنا ليس زواجاً تقليدياً، وأعرف بأنه لن يدوم إلى الأبد. ولكنني لن أقبل بأن أكون موضع سخرية. لا أحتمل فكرة مغادرتك سريرها والمجيء إلى سريري.

راح يربّت بأصابعه على المقود ممّا أثار عصبيتها أكثر.

- لوكا، هلا أصغيت إليّ بحق الجحيم؟

ردّ باستعلاء:

- عندما تقولين كلاماً منطقياً فسأستمع إليك.

- هذا كلام منطقي جداً.

ومدت يدها إلى جهاز الراديو وأطفأته مرغمة لوكا على الاصغاء إليها. سألت:

- أتنوي الاستمرار مع آنا كما في السابق؟

سألها بغظاظة:

- ماذا تعنين بالسابق؟

- أعني قبل زواجنا. أتنوي إبقاءها عشيقة لك؟

- ولِمَ عساي أحتاج إلى عشيقة؟

تركَ المقود ولوّح بيديه في الهواء، فأحكمت فيليسيتي التمسك بمقعدها وحاولت التفكير بمدى حكمة مواجهته وهو يقود السيارة عبر الجبل. قال:

- طالما أنا معكِ لا أحتاج إلى عشيقة.

- أهذا تهديد؟

تنهّد ولم يجب.

- أتعني بأنني ما دمت أرضيك ستبقى بعيداً عن آنا؟ وما إن أتوانى قليلاً عن ذلك ولا أرتمي بين ذراعيك ستهرع إليها؟

- أنت تحرّفين كلماتي.

- لا أظن ذلك يا لوكا. أخبرتني أنك كنت تتحدث إلى أمك، إلا أنك كنت مع آنا على الشرفة في البرد القارس تفعل لا أدري ماذا.

لم يجب بل تابع القيادة مكشراً.

- لن أرضى بأن تستغفلني يا لوكا. إن كان هناك شيء بينكما، فأنا أريد معرفته منك. قالت آنا....

صاح:

- آنا قالت، وريكاردو قال....

جنحت السيارة قليلاً لكنه عاد فأمسك بالمقود وأعاد السيطرة عليها وقال بغضب:

- أنا زوجك بحق السماء، ألا يهم ما أقوله لك أكثر؟ لِمَ تستمعين إليهما؟ لم تصدقينهما وترفضين تصديقي؟

- لأن....

وأشاحت بنظرها بعيداً، فضّلت النظر إلى الخارج عوضاً عن أن تتعذّب وترى ابتسامة الشفقة التي سترتسم على شفتيه إن تجرأت على إخباره الحقيقة، ما عساها تقول؟ إن زواجها منه ليس زواج مصلحة بالنسبة لها بل زواج حب، إنه قلب عالمها رأساً على عقب؟ إنها مستعدة للذهاب إلى الجزء الآخر من الكرة الأرضية كي تكون برفقته؟ وإن كل ما يعزيها هو التفكير به، يضمّها، ويعزّزها.

كانت السيارة تسير الآن على أرض من حصى وتوقفت أمام مبنى حجري ضخم. أضيئت الأضواء عندما شدّ لوكا المكبح اليدوي، وقد زاد غضبه أكثر فأكثر.

- جدي يدخن ولا تحب والدتي أن يدخّن داخل المنزل.

سمعت في صوته نبرة أشبه بالعظة، راح يتحدّث إليها كما لو أنها تعاني من هوس غير مبرّر وهو يرفض مجاراتها به. تابع:

- ولهذا السبب كنّا في الخارج ليس إلاّ. فلو بذلت جهداً وخرجت لموافاة زوجك عوضاً عن البقاء والاستماع إلى كلام ريكاردو، لما كنّا نجري هذا الحديث الآن.

- إذاً لقد فهمت الأمر بشكل خاطىء، أو لعلي فهمته بشكل صحيح، ولكنني لم أنظر في الاتجاه المعاكس بالسرعة الكافية.

توجّه نحوهما شخصان مسنّان. فتح الرجل صندوق السيارة وتوجّهت المرأة صوبهما تشق طريقها عبر الثلج ككلب يرحب بعودة سيّده.

- أفترض بأن هذه هي روزا السيئة السمعة؟

- إنها تتوق للتعرّف إليكِ.

- سأتذكر هذا عندما تناديني آنا، وأظنك تتوقع مني الآن أن أتصرّف كعروس جديدة فرحة، فنحن لا نريد أن نخيب أمل الموظفين صح.

تنهد لوكا وفتح باب السيارة ونزل وحيا الشخصين اللذين يستقبلانه.

جلست فيليسيتي في السيارة وارتعشت عندما دخلت نسمة باردة من الباب الذي تركه لوكا مفتوحاً، ثم استدار ففتح لها الباب من جهتها.

- هيا بنا يا عزيزتي.

جاء صوته ناعماً ولكن فيليسيتي شعرت بالغضب البادي في عينيه.

- أتوق إلى اصطحابك إلى الداخل.

وبحركة واحدة، تجاهل رفضها وحملها وأغلق باب السيارة برجله ونظر إليها بحزم وهو يقرّبها منه. وصعد الدرجات الأمامية ثمّ دخل منزلهما الزوجي وصولاً إلى الردهة حيث اصطف الموظفون وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامات عريضة.

- أنزلني يا لوكا.

بدا صوتها ناعماً، ولم تفارق الابتسامة ثغرها، ولكن نظرتها أكّدت له أنها تتحدّث بجدية.

- عندما أصبح جاهزاً للذلك، فكما سبق أن قلتِ لي لا نريد أن نخيب أمل الموظفين.

- لوكا.

ما زال صوتها ناعماً ولكن غضبها تصاعد إذ رفضت أن تخافه، قالت:

- إن لم تنزلني الآن، فسأفضح هذه المسرحية برمّتها.

كانت تعرف بأنها لن تفوز، وبأنه لن يفلتها قبل أن يقرّر هو هذا.

ولكن لِمَ لا تلعب هذه اللعبة بشكل معاكس!

وبجرأة عانقته ولاحظت استغرابه. تسارعت نبضات قلبه لهذه الخطوة الجريئة وراح يتنشق رائحتها العذبة ويذوب في سحرها، إلا أنها سرعان ما ابتعدت عنه.

- والآن، هلا أنزلتني؟

وفعل للحال ما طلبته منه، ولكن فيما هو يخفضها بتمهّل، تمنّت لو

أنه لم يفعل، وتاقت إلى قوّة ذراعيه، وهي تواجه النظرات الفضولية والمرتابة للحشد المتجمهر حولهما، واحمرّت خجلاً عندما عرّف عنها لوكا بالإيطالية.

- أقدم لك روزا وماركو.

وقرّبها منهما، وفيما مدت يدها لتصافحها ندمت فوراً على هذه التحية الرسمية.

- يفترض بكِ أن تقبليها على خديها.

قال لوكا هذا بصوت منخفض. إلا أن تحذيره جاء متأخراً، إذ كانت المرأة المسنة قد مدّت يدها لتصافح فيليسيتي. أدركت تلك الأخيرة عندها بأنها قد خسرت بضع نقاط.

- تفضلي.

وقادتهما إلى غرفة عرفت فيليسيتي أنها غرفة الجلوس بيد أن جدرانها العالية والمفروشات الجلدية القاتمة، والأرض الرخامية، والتحف الأثرية تختلف تمام الاختلاف عن ردهة الجلوس في منزل أهلها.

وبالرغم من تعب عينيها، نظرت في أنحاء الغرفة فرأته يحدّق إليها ويبتسم.

لقد ذهبت ذكرى القطة الصغيرة الآن، وباتت تذكّره بقطة كبيرة ذات قامة ممشوقة، وعينين مشكّكتين، وبعض الخوف، كانت تبحث بحذر عن مكان تجلس فيه وهي مستعدة للمغادرة لدى سماعها أية حركة.

- تفضلي.

وفيما وضعت روزا الكأس بين يدي فيليسيتي، نظرت تلك الأخيرة إلى المشروب الأصفر بحذر.

قال لوكا مبتسماً:

- إنه نوع من الليموناضة، طعمه حلو وهو ساخن. إنه ما تحتاجين إليه في ليلة باردة كهذه.

ارتشفت جرعة صغيرة، وأوشكت أن تبصق المشروب من فمها، لكنها عادت فابتلعته مرغمة وقد لاحظت انزعاج روزا.

- ألم تحيّه؟

سألتها روزا متهمّة، فلم تستطع فيليسيتي إلاّ أن تتنهّد.

- أنا واثقة من أنه لذيذ لكنني لم أعتده بعد.

- يكفي أن تقولي نعم أو لا.

ضحك لوكا فيما أخذت روزا الكأس وعادت فوراً وهي تحمل كوباً من الماء تناولته فيليسيتي ممتنة.

- آسفة.

تنهّدت روزا ولكن ابتسامة قبول الاعتذار تلاشت بسرعة عن شفتي فيليسيتي عندما أردفت روزا:

- ولكن السيدة آنا تحبّ دوماً تناول هذا المشروب قبل أن تأوي إلى الفراش.

ضحك لوكا مجدّداً فيما غادرت روزا الغرفة. وقال:

- تجاهليها، فهي تكره التغيير ولكنها ستعتاد سريعاً. تتساهل آنا معها كثيراً وتسمح لها بارتكاب جريمة، ولهذا تشتاق إليها إلى هذا الحدّ.

- وأي نوع من الجريمة هذا؟

سألت فيليسيتي بفضول بيد أن رأسها لا يزال يطن بكلمات روزا.

- روزا تحبّ هذا المشروب أيضاً. أظنها تشتاق إلى حليفتها.

- وأنت لا تمانع؟ يكره معظم الناس أن يشرب موظفوهم أنواع العصير الخاصة بهم.

- لا بأس إن غضّينا الطرف قليلاً. فروزا امرأة طيبة وستدركين هذا بنفسك قريباً.

- لو كنت مكانك لما تأمّلت كثيراً. أنا واثقة من أن روزا امرأة طيبة عندما يتعلّق الأمر بك، ولكن أشك في أن تنتقل إرادتها الطيبة إلى الأمور

المتعلقة بزوجتك.

- أعتذر عمّا قاله ريكاردو، فهو يحكم على الجميع استناداً إلى قواعده الخاصة.

تنهّدت فيليسيتي، واتسعت عيناها:

- هل لديه عشيقة؟

- صحة ريكاردو سيئة الآن، أظن أنه بالكاد يستطيع مجاراة آنا، ولكن كان لديه عشيقة عندما كان متزوجاً من زوجته الأولى.

تنهدت فيليسيتي تنهيدة عميقة، فكل ما يجري معقد للغاية.

قال لوكا بلطف:

- أنت مرهقة، سآخذك إلى فوق.

أرادت أن تقف، فسبقها لوكا وحملها فلم تعارض سمحت لجسدها بالالتفاف حوله، ووضعت رأسها على صدره القوي وهو يحملها على الدرج الكبير، ويرفس باب غرفة النوم ويضعها بلطف على السرير الوثير.

همس وهو يزيل حذاءها من رجليها:

- مسكينة فيليس، حبيبتي كلّ ما يجري محيّر جداً بالنسبة لكِ.

راح يمسّد كتفيها بلطف. وفي حين تاقت فيليسيتي إلى الطمأنينة لا الدلال، سهل عليها الاستفادة من الدفء الذي يزوّدها به لوكا، وذابت بين يديه وهو يضمّها إلى صدره، ويهدىء من روعها ومخاوفها.

٥ - آسفة.. ولكن!

- ماذا ستفعلين اليوم؟

قالت فيليسيتي بحزم متجاهلة النظرة السوداء التي رمتها بها روزا عندما دخلت المطبخ بقميص نوم قصير، وشعرها الأشقر غير مرتّب، بينما كان لوكا مستعجلاً، يرتشف قهوة مرّة بسرعة ويحاول وضع الأوراق في حقيبته.

- سأدرس، فقد تأخرت كثيراً عن الدرس، في أية ساعة تظن بأنك ستعود؟

- في وقت متأخر، لا يفترض بي أن أطلب منك انتظاري، ولكن لو كنت تعرفين كم تبدين رائعة هذا الصباح فستفهمين أنانيتي.

- لوكا.

ونظرت فيليسيتي نحو روزا التي تقف معهما في المطبخ. بما أن لوكا معتاد على وجود الخدم، فهو لا يكترث لما يقوله بحضورهم، ولا يخفض صوته أو يغيّر تعليقه، في حين أن فيليسيتي تخفض صوتها وتتوقّف عن الكلام كلّما وضع نادل منديلاً على حضنها، ممّا يغضب لوكا كثيراً.

- لِمَ لا تأتين معي؟ هيّا تعالي، يمكنك التسوق وملاقاتي للغداء. لا بدّ أنكِ سئمت البقاء هنا.

- أحتاج إلى الدراسة يا لوكا.

وانتقت قطعة حلوى من الصحن الذي قدّمته لها روزا وقضمت منها قضمة صغيرة. في كل الأحوال تبقى الحلوى افضل من اللحوم والسلامي

التي حضّرتها روزا والتي انزعجت فيليسيتي من مجرّد رؤيتها.

سألتها روزا متهمة:

- ألا تحبين هذا؟

- إنه لذيذ.

قالت فيليسيتي هذا وقضمت قطعة أخرى وقد صمّمت على البحث في المتاجر الإيطالية عن رقاقات الذرة، وتناول كوب من الشاي، هكذا فكّرت وهي تشرب القهوة السوداء الحلوة التي يبدو أن الإيطاليين يحبونها.

- ألا يمكنكِ وضع الكتب جانباً لبعض الوقت؟

- عليّ أن أعمل يا لوكا، فلدي بحث عليّ تقديمه الأسبوع المقبل. أنت تعرف مدى أهمية دراستي بالنسبة إليّ.

وبعد التفكير في الموضوع، أدركت أن الدروس التي تنتظرها فوق ليست مثيرة للاهتمام كمحال روما التجارية، ولكنها لم تكذب عندما قالت إنها تأخرت عن الدرس كثيراً. فالدرس بالمراسلة جعلها تتوانى عن قراءة المحاضرات والدرس. فالليلة تلو الأخرى، يعود لوكا إلى المنزل في وقت متأخر، ثم يبدأ بالتنهّد وقد عيل صبره وهي تعمل على الكومبيوتر، أو يستحم لفترة طويلة ثمّ يدعوها لموافاته.

وقد مرّ وقت طويل لم تدرس فيه.

أصرّ لوكا:

- يمكنك إحضار الكومبيوتر المحمول والعمل في مكتبي. هيّا يا فيليس، يمكننا أن نبيت الليلة هناك. سأنهي عملي حوالي السادسة ويمكننا عندها قضاء السهرة معاً.

كان الهاتف يرن في الصالة، واتجهت روزا رغماً عنها للردّ على الاتصال. وزاد إصرار لوكا.

- اذهبي واحضري كتبك والكومبيوتر، وارتدي ملابسك، أو تعالي

كما أنتِ.

واقترب منها ولامس قميص نومها فذابت ولم تعد تقوى على الرفض.

- سيكون من الرائع أن نمضي بعض الوقت معاً بمفردنا.

- سنعمل.

أشارت فيليسيتي إلى هذا، ولكنها عرفت ما كان يقصده. ففكرة تناول الغداء، والعشاء، والفطور برفقته تثير في نفسها الحماسة. وقد تلاشى انزعاجها من الفنادق إذ قارنته بقضاء النهار بمفردها مع روزا. موزاريلو منطقة جميلة ولكنها صغيرة، لقد استكشفت شوارعها كلّها، وسارت لساعات على طرقاتها الضيّقة، وحاولت التحدّث إلى السكان المحليين، ولكن من دون لوكا، شعرت دوماً بأنها تحاول تمرير الوقت بين الفجر والمساء، وفكرة قضاء ليلة كاملة برفقته بدت رائعة، بل إن قضاء ليلة كاملة بين ذراعيه من دون أن تسمع صوت المروحية توقظهما في الصباح الباكر وتنتزعه من بين ذراعيها فكرة خلاّبة.

- ولكن يمكننا حتماً الاستراحة للغداء.

- وتناول القهوة الصباحية أيضاً، وشاي بعد الظهر أيضاً.

ضحكت فيليسيتي:

- شاي بعد الظهر رهن بالإنكليز. ظننت أن الإيطاليين يأخذون قيلولة.

- هذا اقتراح أفضل.

- سيدي.

عادت روزا وابتعدت فيليسيتي بسرعة عن لوكا، وقد احمرّت وجنتاها خجلاً عندما نظرت إليها المرأة بانزعاج، قالت شيئاً بالإيطالية، ففهمت فيليسيتي فحوى الحديث.

- تطلبك السيدة آنا من الفندق.

فكرة اتصال آنا من الفندق في هذه الساعة المبكرة جعلت حواس

فيليسيتي تتيقظ، ولكنها نظرت إلى ردّة فعل لوكا وشعرت ببعض الارتياح.

فسرّ لها:

- يسمح لها ريكاردو بالذهاب إلى هناك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع فقط. لذا، لا بدّ أنها بدأت العمل.

- هل تنام هناك؟

- طبعاً، فأنا المجنون الوحيد الذي أعود كل يوم. سنغادر خلال خمس عشرة دقيقة.

ابتسم لوكا وقبّل خدّها قبل أن يتبع روزا إلى الصالة.

صعدت فيليسيتي إلى الغرفة بسرعة ثم جمعت كتبها بيد أنها كانت تعرف أنها لن تدرس فبوجود لوكا في المبنى نفسه معها يستحيل عليها أن تركّز على الدرس حول استراتيجيات الإدارة أو التحليل المؤسسي. ولكن لم يخطر ببالها لثانية عندما قبلت عرضه بأنها ستقابل آنا. يا الله! تمنّت لو تملك ساعات من الوقت لتحضّر نفسها. وتخيلت الفتيات الإيطاليات بأناقتهن ورائحة عطرهن فتملّكها الخوف والذعر وهي تفتح خزانة ملابسها وتدعو كي تجد شيئاً ملائماً ترتديه.

اختارت تنورة كحلية اللون ترتديها عادة عندما تذهب في مقابلة عمل. صحيح أن ما ترتديه رسمي جداً لكونها ستذهب لتدرس، ولكن في النهاية هي ذاهبة إلى فندق من أفخم فنادق المنطقة ولا يمكنها ارتداء سروال جينز. سمعت صوت المروحية فسوّت شعرها بسرعة وأملت ألا تكون قد بالغت في التأنق.

- فيليس.

سمعته يناديها لكنها تجاهلت نداءه وبحثت في حقيبة يدها عن قلم كحل ووضعت بعض أحمر الشفاه.

- فيليس.

عرفت بأن صبره قد عيل، فنظرت إلى انعكاسها في المرآة الطويلة وأعجبت بما رأته وهي تحدّق إلى المرأة الأنيقة المبتسمة.

- فيليس.

تناولت حقيبة يدها ووقفت أعلى الدرج تتأمله لثانية وهو يذرع الأرض ذهاباً وإياباً وينظر غاضباً إلى ساعة يده وهو يصيح عبر جهازه الخلوي.

- أكان هذا النداء الثالث والأخير؟

استدار وبدأ يومىء ليلومها على تأخرها، ولكن فيما هو يستدير، تسمّر في مكانه وأقفل الهاتف الخلوي، ووقف جامداً يتأمّلها وهي تنزل الدرج باتجاهه.

- تبدين. . . .

لم يستطع ابتلاع ريقه عندما وصلت إلى جواره، وقد وصلت إليه رائحة عطرها قبل أن تصل هي. تابع ببساطة وهو يمسك بيدها ليخرجا:

- تبدين رائعة.

- سيدتي.

ركضت روزا خلفهما، فاستدارت فيليسيتي متفاجئة إذ بادرت السيدة المسنّة بالكلام معها.

- لم تنهي الفطيرة.

- آه.

نظرت فيليسيتي إلى الفطيرة التي لفتّها روزا بورقة صفراء، والكريما تسيل عن الجانبين، وشعرت بمعدتها تنقلب.

- شكراً روزا.

قال لوكا بجفاء:

- ستتناولين الفطور على الطريق، هيّا يا فيليس.

لم تصعد فيليس في طائرة مروحية من قبل وعندما أمسك لوكا بيدها

ليساعدها ضحكت فرحة. صعد لوكا قبلها ببساطة وسهولة وساعدها للجلوس بقربه. أرادت سحب المرآة لتتأكّد من أن شعرها مسوّى ولكن وبما أن الظلام كان مسيطراً تمكّنت من رؤية نفسها في الزجاج، وسرّت لأن شعرها لم يتبعثر.

- تبدين جيدة.

قال لها لوكا هذا عندما رآها تنظر إلى الزجاج، فاحمرّت خجلاً. ولكنها لم ترد أن تبدو جيدة بل رائعة وخلاّبة، وتلفت انتباه الجميع إليها عندما تدخل المبنى.

وذلك كي تثبت لعالم لوكا أنها ليست خرقاء وبسيطة.

لم تستطع تبادل الكلام مع لوكا بسبب صوت محرّك المروحية، ولكن فيما أشرقت الشمس من خلف جبال الألب الإيطالية رأت فيليسيتي روعة الجبال وشعرت بأنها لو فتحت نافذة المروحية ستستطيع التقاط القليل من الثلج، وأدركت حينها مدى جمال بلاد لوكا.

استطاعت أن ترى موزيرالو تتلاشى في البعيد تدريجياً، رأت مساحات من أشجار الكرمة كلها تقود إلى الساحة حيث تثرثر النساء ويتبادل المراهقون العناق. استطاعت أن ترى أيضاً الفيلا الحجرية، المبنية في التلال، والكنيسة البيضاء الصغيرة التي تبدو أشبه بمجسّم. وحنت رقبتها لتنظر إلى الضيعة نظرة أخيرة قبل أن تغيب وفهمت أخيراً لما كان يعود لوكا كل يوم، وكم يبدو الفندق تافهاً مقارنة بهذه الأرض الغنية الجميلة.

صاحت فيليسيتي:

- كم يلزمنا من الوقت حتى نصل؟

ناولها لوكا سماعتي أذن، وقال:

- هذا أفضل من الصياح.

كان صوته منخفضاً وواضحاً عندما وضعت السماعتين وسمعته

يتحدّث. شعرت بنوع من الراحة والحميمية فيما غمر صوته أذنيها وكيانها كلّه. كانت تعشق سماعه يتحدّث وتتوق إلى اتصالاته الهاتفية خلال النهار، فتستلقي على السرير وتسمح لصوته المثير بأن يغمرها. ولكن هذا أفضل فهي تستطيع رؤيته ممدداً قربها على المقعد الجلدي، ويلف خصره حزام الأمان، فيزيده إثارة.

- قل شيئاً.

تمتمت وهي تريد سماعه يقول شيئاً، وتلمح الحماسة في عينيه.

- تحدّث إليّ يا لوكا.

ابتسم لها، وسأل بالإيطالية:

- كم يلزمنا من الوقت لنصل؟

كانت تحبّ أن يتحدّث إليها بالإيطالية، وشعرت بوجنتيها تحمران خجلاً فرطبت شفتيها بلسانها.

ردّ السائق عليه بالإيطالية. فقفزت في مكانها عندما سمعت صوتاً غير صوت لوكا وخافت خوفاً شديداً.

- يقول ليو إننا نحتاج إلى خمسة وأربعين دقيقة بعد لنصل، والآن... ماذا كنت تريدين أن تقولي لي؟

ارتبكت، وعجزت عن النظر مباشرة إلى عينيه، فقضمت قطعة من الفطيرة التي بدأت تسخن في يدها.

ارتكبت غلطة كبيرة!

وفجأة لم تعد الجبال المكسوة بالثلوج تبدو جميلة كما في السابق بل مخيفة، حتى أن صوت لوكا لم يعد يسكّن من روعها. شعرت بأن المروحية تضيق وراحت تتعرق وهي تسمع لوكا يتحدّث عن الأحوال الجوية واتجاه الرياح.

- لوكا.

بالكاد سمع صوتها، رطّبت شفتيها بلسانها، وجاهدت لتأخذ نفساً

عميقاً، وتسمح للهواء بالدخول إلى رئتيها في حين تحاول لفت انتباهه. ولكن لوكا لم يكن ينظر نحوها الآن بل هو منهمك بالاشارة إلى المعالم السياحية كما لو أنه دليل سياحي. بحثت في حقيبة يدها بالرغم من أنها لم تكن تعرف عمّا تبحث.

- لوكا.

جاء صوتها أكثر إلحاحاً الآن، مجبرة إيّاه على الانتباه، وصدم لرؤية حالها، وبسرعة أمسك برأسها ووضعه بين رجليها وتكلّم إلى ليو بالإيطالية، فناوله ذلك الأخير كيساً من ورق. واكتشفت فيليسيتي، بعد ستة وعشرين عاماً، بأنها لا تحبّ المرتفعات كثيراً!

وللزيادة من شعورها بالإذلال، بالغ لوكا كثيراً بردّة فعله، وغاب رجل الأعمال البارد ليحلّ محله رجل يبالغ في حمايتها ويفرك ظهرها بحماسة في حين تمنت لو أنه يتركها تموت. في الواقع، لو لم تضبط فيليسيتي نفسها وتمتنع عن الارتجاف وهي تنزل من المروحيّة، فهي واثقة من أنه كان سيطلب من سيارة الإسعاف ملاقاتهم.

سألها وهي تطأ سطح الفندق الذي شكل مكاناً شبه آمن بالنسبة لها.

- لِمَ لم تخبريني؟ لِمَ لم تقولي بأنك تخافين الأماكن المرتفعة؟

حاولت أن تبتسم:

- لقد اكتشفت هذا لتوي، هل من مكان أسوّي فيه تبرّجي وشعري قبل أن نذهب إلى مكتبك، هل تفهم قصدي؟

ولكن لوكا لم يصغ إليها وأكّد لها أنها تبدو بخير، وقادها إلى الردهة مصمّماً على دفعها للارتياح في غرفته الخاصة. أدخلها إلى المصعد فتحرّك ذلك الأخير وتحرّكت معدة فيليسيتي أيضاً وشعرت بالغثيان.

يا لها من طريقة للقاء الأعداء!

كانت آنا ترتدي بذلة حمراء ذات تنورة قصيرة جداً تكشف عن جزء كبير من ساقيها السمراوين، وفتحت فمها مدهوشة عندما رأت لوكا يقود

فيليسيتي إلى الجناح الكبير.

تجنّب لوكا المرور بالمكتب والكراسي الجلدية وعبر باباً خشبياً يؤدي إلى غرفة فيها سرير كبير جداً ودعاها لتستلقي عليه. لم تشعر برغبة بمجادلته فاستلقت في السرير وتمنّت لو تتوقف الغرفة عن الدوران، في حين اقتربت آنا لترى ما يجري.

سألته بالإيطالية:

- ما بها؟

ردّ عليها لوكا بحدّة:

- ستتكلم بالانكليزية.

شربت فيليسيتي جرعة من كوب الماء الذي قدّمه لها لوكا، وارتمت على الوسادات، وهي بالكاد تصدّق بأنه يمكن لشيء تافه كالخوف من المرتفعات أن يسبّب لها كل هذا الانزعاج.

جلست آنا إلى حافة السرير فنظرت إليها فيليسيتي باشمئزاز عندما لم ترَ أثراً للسيلوليت على خصرها.

- يا ليتك أخبرتني بأن فيليسيتي آتية معك.

لم ينظر لوكا إليها حتى، بل تناول محرمة من جيبه ومرّرها بلطف تحت عين فيليسيتي ليمسح الماسكارا ثمّ أجاب:

- اتخذنا قرارنا اليوم صباحاً.

- حتى ولو كان هذا صحيحاً، كان من الأفضل أن تخبرني.

وتنهّدت بعمق وراحت تمرّر يدها في خصلة من خصل شعرها الأسود وتقضم غطاء القلم بشفتيها الحمراوين إلى أن استدار لوكا أخيراً ناحيتها.

- لقد اتصلت بك وطلبت منك المجيء بشكل مباشر لأن بعض رجال الأعمال الهامين سيصلون اليوم. ويريدونك أن تقوم بجولة معهم في الأرجاء ثمّ نجتمع بهم على الغداء.

- اهتمي بهم بنفسك.

- لكنهم يفضّلون رؤيتك، فهم يتحدثون عن إمكانية استئجار بعض الأجنحة بشكل دائم.

- زوجتي مريضة وأنت تطلبين مني لعب دور المرشد السياحي لهؤلاء الأشخاص؟ قولي لهم أن يحدّدوا موعداً سلفاً في المرة المقبلة. أخبريهم أني منشغل، أخبريهم كل ما تشائين. فهذا ما أدفع لك راتبك لتفعليه، صح؟ والآن هلاّ منحتنا بعض الخصوصية، إذ أودّ أن أعرف ممّا تشكو زوجتي.

- هل أستطيع أن أقول لهم بأنك ستوافينا لشرب القهوة على الأقل....

بدأت آنا تقول هذا ولكن عندما تأفّف لوكا توقّفت عن الكلام.

صاح:

- عندما أعرف ممّا تشكو زوجتي سأقرّر، والآن شغلي الضوء الأحمر وأنت خارجة.

لم تغلق آنا الباب بقوة ولكن من الطريقة التي وقفت فيها وأزاحت شعرها إلى الخلف، عرفت فيليسيتي بأنها غاضبة جداً ومستاءة.

تلاشى الضغط والتوتر عندما أصبحا بمفردهما.

- شغلي الضوء الأحمر! ماذا يعني هذا بحق السماء؟

- معناه أنني لا أريد لأحد أن يزعجني، وهذا ما أريده الآن.

جاهدت لتجلس في السرير، وألقت نظرة في الأرجاء وشعرت بالارتياح لأن الأرض توقفت عن الدوران من حولها، قالت:

- مكتبك هذا ليس بتقليدي، هل طلبت هذا السرير الكبير أم أجبرت على الحصول عليه؟

تنهد:

- فيليس، قبل أن أتزوج بكِ كنت أحيا هنا تقريباً. وأنت لا تتوقعين مني أن أنام على طاولة المكتب، صح؟

- أنت محق.

لم تستأ فيليسيتي من الغرفة وفخامتها بل من كون آنا لم تتردّد ثانية باللحاق بهما إلى الغرفة. أشاحت بأفكارها السوداء وأجبرت نفسها على الابتسام:

- لوكا، أنا أشعر بتحسّن كبير، فإن كنت تريد الاجتماع بهؤلاء الأشخاص، سأكون بخير. سأتمدّد هنا وأطالع قليلاً.

- لن ألتقي أحداً، وأنت لن تطالعي شيئاً. حتى أنكِ لن تفتحي هذه الكتب. بل ستستلقين هنا وترتاحين لبعض الوقت، وبعدها، إن شعرت بتحسن ستخرجين للتنزه قليلاً وتنشق الهواء. هل من شيء أستطيع إحضاره لكِ؟

هزّت فيليسيتي رأسها نفياً:

- لا، اذهب إلى عملك وسأستلقي ها هنا!

حذّرها لوكا:

- لا تدرسي، اتفقنا؟ وسأغلق لكِ الستائر كي تنامي قليلاً. في الواقع، سأحتفظ بكتبك وبالكمبيوتر في مكتبي لأحرص على أن ترتاحي.

بعد أن أغلق الستائر، وضع بطانية فوقها ثم جمع كتبها وأغراضها.

- آسفة يا لوكا.

قالت هذا وهو يتجه صوب الباب، وعيناها ناعستان بالرغم من أنها لا تريده أن يذهب.

- لماذا؟

- لأنني تقيأت وأفسدت نهارنا.

- من قال إنه أفسد. فوجودك هنا وحده يسرّني. ولا تقلقي لأنك تقيأتِ، فقد اعتدت الأمر. فبونيتا، سكرتيرتي، حامل وهي تأخذ الملاحظات وهي تحمل الكيس في يدها تحسباً لأن تتقيأ.

وأغلق الباب وخرج وتركها عابسة في الظلمة.

عابسة تدعو كي يكون محقاً فيما يقوله.

٦ - مدٌ وجزر

- تبدين بحالة أفضل.

ابتسمت وهي تفتح باب المكتب، وقد قام لوكا لموافاتها.

- أشعر بتحسّن.

قالت هذا ولم تكن تكذب. فبعد أن استلقت لنحو ساعة في الظلام استراحت، ثمّ رتّبت نفسها، وأصلحت تبرّجها وباتت تتوق للخروج.

- أشعر بتحسّن كبير إلى حدّ أنني سأعمل بنصيحتك وأخرج لتنشّق الهواء النقي.

- فكرة جيدة!

مدّ يده إلى محفظته وانتقى بطاقة اعتماد ثمّ قال لها:

- كنت أودّ مرافقتك ولكن يتعيّن عليّ لقاء هؤلاء الأشخاص لفترة قصيرة وحسب. يمكنك الخروج للتسوّق فيما أنهي عملي. يسعني أن أطلب من أحدهم مرافقتك.

- مرافقتي؟

- تستطيع كاترينا اصطحابك إلى المحلات في جادة «فيا كوندوتي». ستجدين هناك أفضل دور الأزياء، ولكنهم لن يتعرّفوا إليكِ فوراً، ومن دون موعد مسبق، سيصّعبون الأمور عليكِ بعض الشيء. وتستطيع كاترينا إيجاد حلّ لذلك. ستعرّفهم إليكِ، وتُعلمهم بأنك زوجتي، وتساعدك على شراء الملابس.

- ولكنني أملك الملابس، ألستَ راضياً عن ملابسي يا لوكا؟ أتحاول

أن تقول لي بأنني أحرجك؟

ردّ غاضباً:

- طبعاً لا، ولكنكِ جئت لتوّك من صيف استراليا إلى برد إيطاليا، ولا أذكر أنني رأيت في خزانتك معاطف، أو أحذية عالية، أو قفازات. خذيها! ماذا تقول النساء: «تسوّقي ولا تسألي».

تنهّدت فيليسيتي:

- لوكا، آخر ما أرغب بالقيام به الآن هو التسوّق، وإن قرّرت بأنني بحاجة إلى معطف جديد أو ما شابه، فسأشتريه بنفسي، شكراً. كما أنني لست بحاجة إلى مستشارة في الملابس تقول لي ما هي الألوان التي تناسبني، فقد تخطيت هذا الأمر منذ سنوات.

- لِمَ عليك التصرّف دوماً بعناد؟ فأنت المرأة الوحيدة التي أعرفها والتي تثير جدالاً لأنني طلبت منها الذهاب والتسوّق! معظم النساء....

- لست كمعظم النساء، ولكنني أشكر لك عرضك.

- أظنك ستصرّين أيضاً على دفع نصف ثمن الغداء.

اتّسعت ابتسامتها أكثر وقالت له:

- كفّ عن المماطلة يا لوكا. يستحسن بك تناول الغداء مع هؤلاء الأشخاص، أنت تعلم هذا تماماً كما أعرفه. فتخييب أمل هذا النوع من الزبائن ليس بالتصرّف الصائب.

وتابعت وهو يحاول مقاطعتها:

- تناول القهوة الصباحية ليس بالطريقة المثلى لإتمام صفقة عمل.

- أظنّكِ محقة، ولكن لِمَ لا تأتين برفقتنا؟ أنا لا أستطيع تركك بمفردكِ في اليوم الأول لكِ في روما؟

- ولِمَ لا؟ لست بطفلة يا لوكا، يمكنني السير في الشوارع من دون مواكبة. على كل حال، وبعدما حصل هذا الصباح، آخر ما أريد فعله هو تناول غداء ثقيل، كما وأن اليوم ليس اليوم الأول الذي أقضيه في روما،

فقد كنت هنا مع جوزيف، أتذكر؟

- حسناً، ولكن إن احتجت إلى أي شيء، وصادفت أية متاعب، اتصلي بالفندق واطلبي التحدّث إلى رافاييللو.

- رافاييللو؟ أهو مساعدك الشخصي؟

- لا، إنه مفيد أكثر من مساعدي الشخصي، فهو المسؤول عن البوّابين، وما من شيء يعجز عن إتمامه.

- سأذكر هذا.

- إذاً متى سأراكِ؟

- هذا المساء، سأحضّر لنا العشاء، لاقيني إلى هنا عند السادسة.

وقبّلته على خدّه واتجهت نحو الباب.

استاءت قليلاً عندما راحت تنظر إلى الشوارع المكتظة بالمحلات الأنيقة، ولوهلة تمنّت لو أنها عملت بنصيحة لوكا وقبلت عرضه.

ثمّ ما لبثت أن أبعدت هذه الفكرة عن رأسها، وبدأت تشقّ طريقها عبر الشوارع المزدحمة، تتأمّل النساء الأنيقات يسرن برفقة أزواجهنّ، ويرتدين المعاطف الجميلة والأحذية اللماعة، أو يجلسن في المقاهي يحتسين القهوة الساخنة.

كانت روما تماماً كما تتذكرها وأكثر، إذ يندمج فيها الفنّ والتسوّق. فعند كلّ زاوية شيّد بناء ضخم يخبر قصص التاريخ، وتنتشر فيها مئات الكنائس التي اضطرّت للنظر إليها من بعيد لأنها لا ترتدي حذاء ملائماً يسمح لها بالسير على الطرقات لمسافة طويلة.

لوكا محق فيما قاله، فثيابها ملائمة جداً للعيش في أستراليا، ولكنّها لا تناسب طقس روما البارد. شعرت بالبرد يجتاحها، وراحت أسنانها تصطك وهي تسير بمفردها. مرّت بالمحال الأنيقة ونظرت إلى الأسعار، ثمّ قرّرت أن تقصد المحال غير الباهظة. سهل عليها قضاء اليوم في مركز تجاري كبير فراحت تتنقّل من محل إلى آخر، تتفرّج على الملابس الصوفية

والمعاطف، إلى أن قرّرت أخيراً سحب بطاقة اعتمادها المتواضعة واستخدامها. وعزّت نفسها لأنها صرفت المال بقولها بأنها ستحتاج إلى الملابس، فبعد حصولها على الدبلوم، ستبدأ باصطحاب الزبائن إلى الغداء.

هذا إن تمكّنت من الدرس للحصول على الشهادة التي لطالما حلمت بها. دفعت ثمن مشترياتها، وحملت الأكياس. وأطاحت بالشعور بالذنب جانباً. فقد مرّ وقت طويل منذ أن انفقت المال على شراء الملابس، مرّ وقت طويل منذ أن دلّلت نفسها. على كلّ حال، لم تعد مضطرة للقلق بشأن المال إذ بات والداها يستطيعان الاعتناء بنفسيهما الآن هذا إن تحدّث لوكا إلى محاميه طبعاً.

ورأت مجموعة من ربطات العنق، فنظرت إلى كل واحدة منها ومرّرت يدها عليها. كانت مصنوعة من الحرير الثقيل المزعج، إلاّ أن واحدة منها لفتت انتباهها، كان لونها أزرق كلون عيني لوكا ولم تكن ثقيلة كالأخرى. وكان جمالها نابعاً من بساطتها، وبسرعة اشترتها، وحاولت عدم النظر إلى رقعة السعر فيما وضبتها الموظفة في علبة بعد أن لفّتها بورقة.

فكّرت فيليسيتي بأنها حتماً باهظة الثمن لأن الموظفة قد لفتها بعناية بالغة، وجاء ظنها في محلّه.

ابتسمت لرؤيتها النظرات التي علت وجوه الموظفين لدى دخول زوجة السيد سانتانو الفندق بمفردها من دون مواكبة.

حيّاها رافاييللو بحرارة:

- سيعود السيد سانتانو قريباً، وبانتظار عودته، طلب مني تلبية طلباتك كلّها. هل ترغبين بأن أرسل بطلب رئيس الطهاة يا سيدتي؟ يمكنه إطلاعك على قائمة الطعام، فقد قال لي السيد سانتانو بأنكِ تجدين الطعام ثقيلاً ودسماً.

- لن يكون هذا ضرورياً، فأنا أملك كل ما أحتاج إليه.

تفاجأ المسؤول عن البوابين لوهلة عندما أخذ كيساً من يد فيليسيتي وشمّ رائحة الخبز الطازج ورأى بعض الحاجيات الأخرى.

- هل من شيء أحضره لكِ يا سيدتي؟ أي شيء؟

- بطانية للنزهات.

قالت فيليسيتي هذا، وهي تراقب ردّة فعله عن كثب.

- طبعاً سيدتي، سأطلب إحضارها إلى غرفتكِ فوراً.

ووفى بوعده، إذ وصلت بطانية إلى غرفتها قبل أن تتمكّن حتى من فك رباط حذائها. وبعد أن برهنت للموظفين أنها قادرة على التسوّق بمفردها، بدأ ترتّب الغرفة، ففرشت البطانية على الأرض، ووضعت الزبدة على قطع الخبز، ورتبت الجبنة والفواكه المجفّفة، وابتسمت لرؤية ردّة فعل رافاييللو عندما دخل برفقة خادمتين تحملان وعاءً فضياً وشمعداناً.

رافاييللو رومنسي فعلاً!

- ما كلّ هذا؟

لم يستطع لوكا أن يرى جيداً في شبه الظلمة المهيمنة على الغرفة قبل أن يستدير نحو فيليسيتي متفاجئاً.

ردّت برقّة:

- عشاء في إيطاليا على طريقة آل كونلون.

وبادرت بافتراش الأرض. وبعد لحظة من التردّد خلع لوكا سترته وحذاءه ووافاها.

شعر أولاً بعدم الارتياح والغرابة، ولكن ما هي إلاّ لحظات حتى أرخى ربطة عنقه واسترخى هو أيضاً، وتناول كأس العصير في حين سكبت لنفسها بعض المياه المعدنية.

قال مكشراً:

- طعمه شبيه بسائل تعطير الفم، من أين أحضرته بحقّ الله؟

- من المحل الذي أشتري منه عادة، فهذا ما كنّا نتناوله جوزيف وأنا في روما. لم نكن نستطيع تناول الطعام في مطعم فاخر كلّ مرة، فتوصلنا إلى هذه الفكرة. كنا نخرج لتناول الغداء في منتزه ما، وبما أنني لم أكن أحبّ هذا النوع من العصير، فقد كنت أكتفي بشرب المياه المعدنية.

- تلك أيام سعيدة.

- نعم، كثيراً.

ونظرت إليه فرأته يحدّق إليها وقد لانت ملامح وجهه على ضوء الشموع، وظهر الاستغراب في عينيه الخلاّبتين فأردفت:

- وهذه الأيام أيضاً سعيدة.

صحيح أن المبلغ الذي دفعته فيليسيتي مقابل ما اشترته لا يضاهي ثمن صحن من الحساء في المطاعم التي تقصدها مع لوكا، إلاّ أن هذه اللحظات كانت الأسعد والأكثر روعة في حياتهما الزوجية برّمتها. لم يكن هناك من خدم يقفون قربهما ويساعدونهما في كلّ صغيرة وكبيرة، بل كانت بمفردها مع لوكا وستقضي الأمسية كلّها على هذه الحالة. عرفت بأن عليهما التحدّث في أمور كثيرة، وتخطّي عدد لا يستهان به من الصِعاب، ولكنّها قرّرت عدم طرح الأسئلة الآن خشية إفساد هذه اللحظة النادرة التي تقضيها معه بمفردهما.

- ابتعتُ لك هدية.

وناولته العلبة وراقبت عن كثب نظرة التساؤل التي ظهرت في عينيه وهو يقبل الهدية منها. تابعت:

- ليست بالشيء الكثير، كلّ ما في الأمر هو أنني رأيتها، ورأيت أنها تتماشى مع....

وابتلعت ريقها بصعوبة، وشعرت بالامتنان لأن الضوء خافت حتى لا يلاحظ احمرار خدّيها، وتابعت:

- لون عينيك.

- إنها رائعة.

جاء صوته خشناً، وحين نظرت إليه فيليسيتي ذهلت لرؤيتها مدى تأثره. تابع:

- سأرتديها غداً.

- لست مضطراً لذلك، فأنا أعرف أنها لا تقارن بربطات العنق التي تملكها.

قاطعها لوكا:

- إنها رائعة، بل إنها الهدية الأروع التي حصلت عليها يوماً.

استغربت فيليسيتي ردّة فعله:

- ولكنها مجرد ربطة عنق، ما من داعٍ لتتأثر هكذا.

خالفها لوكا الرأي:

- أتعرفين أن هذه هي الهدية الحقيقية التي تلقيتها يوماً من امرأة؟

ضحكت فيليسيتي بتوتر:

- مهلك عليّ، فغرفتك مليئة بالهدايا من محلات تيفاني، وأنا واثقة أن نساء اشترينها، وربطة العنق هذه لن تضاهي ولا بأي شكل من الأشكال الهدايا الأخرى.

- هذه الهدية الوحيدة التي سأذكرها، صحيح أن النساء قدّمن لي الهدايا وسعين جاهدات لإيجاد هدايا غريبة وغير اعتيادية. إلاّ أن المرء يفقد اهتمامه بالهدية عندما تضاف إلى فاتورة بطاقة اعتماده، صح؟

وتلاشى صوته ونظر إلى قطعة القماش التي يحملها بين يديه، وللمرة الأولى منذ لقائهما، شعرت فيليسيتي ببعض الشفقة عليه. دلّت نبرة صوته على مدى شعوره بالوحدة في مرّات عديدة، وأدركت أنه قد عانى... عانى لأن كلّ صداقة وعلاقة على الصعيدين الشخصي والعملي، قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحسابه المصرفي.

- وهذه الليلة مميزة جداً أيضاً.

ونظر إلى البطانية التي يجلسون عليها، والطعام، والآنية التي اختارتها بدقة، وعبقت جميعها بالذكريات القديمة والجديدة، قال:

- فيليس، أريد أن أخبرك شيئاً. ثمة ما علينا التحدث بشأنه.

وانقطعت عن التنفس لوهلة، وعندما وضع يده فوق يدها، أحسّت بيده متعرّقة وشعر بالتردّد في صوته وهو يتكلّم.

- لم أكن صريحاً تماماً معكِ.

كان الأمر أشبه بانتظار حكم الإعدام. راح قلبها يخفق بقوة هائلة إلى حدّ أنه قد يكون سمعه. لقد حانت لحظة المواجهة التي لطالما انتظرتها، ولكنها ليست واثقة من رغبتها بالمواجهة الآن، ليس إن كان سيتحدث عن الشيء الوحيد الذي تعجز عن مسامحته ونسيانه.

- أنا!

خرجت الكلمة التي تطنّ في رأسها من شفتيه، واستغرقت نحو دقيقة لتدرك بأن لوكا لا يؤكّد أسوأ مخاوفها، بل رأى أنا تدخل الغرفة وتقف أمامهما.

- ماذا تفعلين هنا؟

وقف غاضباً وسار نحوها، وهو يمرّر يده في شعره، ثمّ سألها:

- ألا تعرفين أن تقرعي الباب؟

- منذ متى أحتاج إلى قرع الباب؟

ونظرت إلى سلة الطعام وارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها. وتمكّنت بنظرة واحدة من تدمير كلّ ما عملت فيليسيتي جاهدة لفعله.

- هل أقاطع عليكما حفلة شاي أو قد أضرب جميع العاملون في المطبخ؟

ومن دون أن تنتظر جواباً، أضاءت ضوء الغرفة وناولت لوكا بطاقة صغيرة.

- أحتاج إلى توقيعك على هذه، سأرسل إلى أحد سلة من الأطايب الإيطالية.

وضحكت، ثم أضافت:

- ربما عليّ طلب اثنين وأرسل واحدة إلى هنا، لم أكن أعرف بأنّ الناس يشربون هذه الأشياء.

ومن دون أن يتفوّه بكلمة، أخذ لوكا البطاقة ودوّن عليها بضع كلمات، ولكن واستناداً إلى النظرة في عينيه، شكّت فيليسيتي بأن يكون قد دوّن شيئاً ملائماً. تابعت آنا من دون أن تعير أي انتباه لِما أفسدته:

- اتصل ريكاردو لتوّه. يريدكما أن تأتيا للعشاء مساء السبت.

فتح لوكا فمه ليجيب إلاّ أن فيليسيتي سبقته:

- نحن منشغلان يوم السبت.

بعد أن خرجت آنا، أطلقت فيليسيتي تنهيدة كبيرة وقالت:

- هذا رائع فعلاً!

استدارت نحوه، وتوقّعت أن يبتسم معتذراً، أو يتنهد لأنه ارتاح منها، ولكن وعلى العكس وجدته يستشيط غيظاً وصاح بها:

- لِمَ قلتِ هذا بحقّ الجحيم؟ كيف تجرأت على رفض دعوة للعشاء في منزل ريكاردو من دون استشارتي؟

- تجرّأت لأنني لا أرغب أبداً بقضاء أمسية برفقة آنا.

- ولهذا السبب ترفضين دعوته؟ ريكاردو هو الصديق المقرّب لعائلتي وأنت ترفضين تناول الطعام إلى مائدته!

- أرفض تناول الطعام إلى مائدة زوجته! أرفض أن تذلني آنا! أرفض أن أدعها تسخر بوجهي من مهزلة هذا الزواج!

- أهذا ما يجري إذاً؟ أتطالبين بتغيير القواعد فجأة؟ أتريدين أن أقول لكِ بأنني أحبكِ يا فيليس؟ وأن أخبرك بأن ما يجري سيدوم للأبد؟

هزت رأسها ورفعت يديها لتضعهما على أذنيها. أرادته أن يحبّها!

ويقول لها بانه يحبّها، ولكن ليس بهذه الطريقة أبداً. لا تريد إكراهه على ذلك لإسكاتها وإرضائها ليس إلاّ.

- هل قللّت يوماً من احترامكِ؟ هل منحتك ولو لثانية سبباً لتشكّي بي؟

لم يفتح لها المجال لترد وكان غضبه يتضاعف بسرعة، وتابع:

- أخبرتك يوم التقينا أن علاقتي بآنا قد انتهت، ونظرتِ مباشرة إلى عيني وقلتِ إنك تصدقينني!

ردّت بصوت مرتجف:

- سهل عليّ أن أصدّقك عندها، فلم أكن قد رأيتها تتحدث إليك وتحاول أن تغريك. أضف أن الضوء الأحمر مضاء وقد قلت لي بنفسك بأنه يعني أنك لا تريد لأحد أن يزعجك! ولكن يبدو أن هذه القاعدة لا تنطبق على آنا. ولكن لماذا؟ حتى ريكاردو....

- هل أصبحت تصغين إلى ما يقوله ريكاردو؟ تصغين إلى ذلك السافل الذي يفضّل أن يظن الناس بأنني أعاشر زوجته عوضاً عن أن يعرفوا بأنني رفضتها؟

لاحظ الصدمة التي ارتسمت على وجهها، وأومأ لوكا:

- هذا صحيح، هؤلاء هم الأشخاص الذين تفضلين الاصغاء إليهم عوضاً عن الاصغاء إلى زوجكِ.

- أنت تتحدّث كما لو أن زواجنا حقيقي!

وفيما تنهد غاضباً، هزت رأسها واستدارت لترحل. لم تكن واثقة من وجهتها، ولكنها لم ترد متابعة هذا الجدال المحتدم. ولكن رأي لوكا جاء مغايراً. أعادها وشدّها بقوة وأجبرها على النظر إليه.

- إياك أن تغادري! عودي إلى هنا وأنهي ما بدأته يا فيليس.

راحت تتعرّق وهي تقترب منه أكثر وترى نظرة التهديد على وجهه:

- أريد أن أشير بأنك تتحدث إليّ كما لو أننا زوج وزوجة، كما لو

أننا . . . .

ابتلعت ريقها بصعوبة. لقد أوصلت هذه المشاجرة إلى حدّ اللا عودة، ولكنها الآن تريد التراجع، لا تريد سماع نبرة الشفقة في صوته عندما يدرك بأنها تحبّه، وبأن هذا ليس لعبة بالنسبة إليها أو حلاً لمشكلتها ولم يكن كذلك يوماً. لم ترده أن يعرف بأن مشاعرها صادقة.

- كما لو أننا ماذا؟

همست:

- كما لو أننا نحب بعضنا وبأنه يتعيّن عليّ أن أصدقك مهما كان الثمن. وكما لو أنك تهتمّ لما أفكر به.

قال بصوت هادىء ولكن حازم:

- وماذا ظننت؟ ما الذي يدور داخل رأسك الجميل هذا؟ حاولت طلب ذلك بلطف، وحذر، ولكنني وصلت إلى طريق مسدود. لن أكون لطيفاً بعد الآن، ولا حذراً. إن كان لديكِ ما تقولينه، فيستحسن بك البوح به الآن.

- أريدك أن تتحدث إلى المحامي يا لوكا! وأن تفي بوعدك وتسوي مسألة المتجع، وأريدك أن تكفّ عن منعي من الدرس.

أفلتها، وتناول كأسه وبغضب رماه نحو الحائط قبل أن يتناول كأساً آخر ويسكب فيه العصير مجدداً:

- هل انتهيت؟

استدار ونظر إلى أرجاء الغرفة وسألها بعنف:

- هل هذا كل ما تريدينه مني يا فيليس؟ أهذا كل شيء؟

- ليس تماماً.

كان يحكم الإمساك بالكأس، وقد استحال وجهه شاحباً وهي تقترب منه بهدوء وتتحدث وتزيد التوتر مع كل كلمة تنطق بها.

- أريد شيئاً آخر منك يا لوكا.

وقفت أمامه تواجهه وترفض أن تخشاه أو تسمح له بتسبيب الأسى لها، قالت:

- أريد بعض الاحترام. فإن عجزت عن إسكات عشيقتك، فأبقها بعيدة على الأقل.

لو امتلكت فيليسيتي ثوب نوم طويل لارتدته حتماً، ولو كان لوكا يملك بيجامة في خزانته لكانت حلّت المسألة.

ولكن عوضاً عن ذلك، اكتفيا بالنوم في السرير واتخذ كل واحد منهما جهة. اقتربت فيليسيتي من حافة السرير خشية أن تلمسه، وحاولت التنفس بطريقة مستوية فيما أطفأ الشمع والنور، وقرّرت أن تغفو قبله.

لكنها خسرت بأشواط.

أرادت أن تصدّق بأنه يدّعي النوم، ولكنها عرفت من تقلّبه وصوت شخيره بأنه ما إن أسند رأسه إلى الوسادة حتى غطّ في نوم عميق. أرادت أن تضربه على أضلاعه وترفسه، وتسأله بغضب كيف استطاع أن يغفو وهي تحتاج إلى إجابات على الكثير من الأسئلة.

كان يضع يده على السرير على بعد سنتمترات عنها. لم ترد أن يلمسها ولا أن تستسلم للمساته. فالأزمة التي حصلت منذ قليل تحتاج إلى علاج منطقي لا إلى علاج في السرير. قرّبها منه، وحتى في نومه يرغب بأن يبقيها قربه. اقترب منها أكثر، فاستلقت مسمّرة تتساءل كيف عساها تفسر له ما يجري في حين أنها لا تفهم شيئاً. كيف تخبره بأن جسدها يتوق إليه، وبأنها وبالرغم من جمودها الحالي، يصيح كل عرق فيها مطالباً بلمساته. أرادت أن تحصل عليه كاملاً، لا على شبه الحياة الزوجية هذه، بل على الالتزام كلّه والحياة الزوجية الكاملة.

كان يقترب منها أكثر، شعرت به يتجاوب معها . .

حاولت الابتعاد، فسمعته يئن معترضاً. أرادت أن تتجاوب معه، ولكن سؤالاً ظل يجتاح تفكيرها، وكلما حاولت إبعاده يعود بشكل أكثر

إلحاحاً، ويطالبها بالتوقف عن تجاهل ما يجري ومواجهة المشكلة.

- فيليس.

توقفت لسماعها صوته وهي تغادر السرير.

همست:

- سأذهب إلى الحمام فقط، عد للنوم.

- لا أريد أن نتشاجر.

لم يفتح عينيه حتى، ووقفت مكانها وحدّقت إليه في الظلمة للحظات، وتمنّت لو أن ما يجري بهذه البساطة وبهذه السهولة. وتمنّت لو أن وسامته لا تترك كل هذا الأثر عليها.

- عودي إلى السرير يا فيليس، لا تبعديني أكثر.

فتح عيناه، وبالرغم من الظلمة رأت الرغبة تستعر فيهما.

لكنها لا تستطيع القيام بهذا، لا تستطيع العودة إلى سريره، وإلى ذراعيه، كما لو أن شيئاً لم يحصل، في حين ينهار كل ما حولها.

- عليّ الذهاب إلى الحمام.

- فيليس....

وضع يده حول خصرها، وقال لها:

- عودي إلى السرير.

كان يأمرها ولا يطلب منها ذلك، ولكنه أغراها بكلامه فشعرت بالنار تستعر في داخلها. راح يعانقها بحرارة. ووقفت مكانها وأغلقت عينيها عاجزة عن اتخاذ قرار.

لقد أرادته، أرادته بشدّة. أرادت أن تستلقي على السرير وتجعل رأسها يتوقف عن التفكير.

ولكن ماذا بعد ذلك؟

- لوكا، لا!

خرجت كلمات فيليسيتي من فمها بسرعة وتوتر جسدها عندما ابتعد

عنها فجأة. لقد اشتاقت إليه فوراً وتمنّت لو تستطيع سحب ما قالته.

قالت بصوت مرتجف:

- أعني، أحتاج فعلاً إلى الدخول للحمام.

- فهمت الرسالة يا فيليس، فبالرغم من أن انكليزيتي ضعيفة، ولكنني فهمت ما تحاولين قوله.

جلست على حافة المغطس وتناولت علبة حبوب منع الحمل وبدأت تقرأ عليها أعراض استعمال الدواء. لا تدري كم مرّة فعلت هذا خلال الأيام الماضية بحثاً عن بعض الطمأنينة، وبوادر الأمل بأنها ليست حاملاً.

صدر مترهل، تغيرات في المزاج، غثيان. إنها تعاني من هذه الأعراض كلها، وهي ناجمة عن الدواء ليس إلاّ، وقد تكون السبب في تأخر دورتها الشهرية.

ولكن....

يا إلهي كم تكره هذه الكلمات المدوّنة بالخط الأسود العريض والتي تقول بأنها إن نسيت مرة واحدة تناول الحبة فقد تصبح حاملاً، وبأن عليها عندها الحرص كثيراً ومراجعة الطبيب إن استمرت الأعراض.

وضعت الورقة في مكانها، فالحقيقة أصعب بكثير من أن تواجهها.

كيف عساها تخبره بحملها في حين أن إنجاب الأطفال لم يكن جزءاً من الاتفاقية؟

لا، هذا مستحيل!

اجتاحتها موجة من الخوف، وشعرت بعجز كبير.

فلنفرض أنها تستطيع القيام بذلك، وتبعد مخاوفها، وتطمح إلى المستقبل حتى ولو كان غير مخطّط له. ولكن كيف عساها تخبر لوكا بما يجري؟ نظرت إلى بطنها المسطح وحاولت تخيله مستديراً ومنتفخاً، تحمل في داخله ابن لوكا سانتانو. كيفما نظرت إلى الأمر، عجزت عن تخيله،

عجزت عن استيعاب فكرة أن يلمس ابنه الذي لم يولد بعد، كل ما يجري صعب للغاية عليها.

عادت إلى السرير بقربه وقبعت في الظلمة. لم تشعر يوماً بمثل هذا الخوف وهذه الوحدة، ولم تحتج إليه يوماً كما تحتاجه الآن.

وضعت يدها على الوسادة:

- آسفة يا لوكا لما حدث. فأنا بالطبع أرغب بك ولطالما فعلت.

لم ينظر إليها بل بقي مسمراً في مكانه ينظر إلى السقف، وقامت بما تستطيع فعله لتبرهن له عن مدى رغبتها به.

قرّبت وجهها من وجهه، وحاولت حثه على التجاوب معها، لكنها عجزت عن ذلك. عرفت أنها جرحته ورفضته، ولكنها أرادت أن تصلح ما جرى. وتعيد الأمور إلى نصابها.

وما إن أوشكت على الاقتراب منه أكثر حتى أمسك بكتفيها وأبعدها إلى الخلف، وقد رأت الاحتقار في عينيه.

- أتخشين ألا تحصلي على علاوتك عندما يحين وقت الدفع؟ اسمعي يا فيليس ما سأقوله، لم أتوسل يوماً للحصول على امرأة ولا أنوي أن أبدأ بذلك الآن. وأقترح عليكِ أن تحذي حذوي.

شعرت بالكثير من الاحراج، وتفاجأت من قسوة كلامه، فاستلقت على ظهرها تنظر إلى الظلمة وتحبس دموع الوحدة وهي تصغي إلى صوت تنفس لوكا. حاولت معرفة ما الذي فعلته لتوّها، والأسوأ من هذا ماذا سيقول لوكا عندما يعرف بحملها.

٧ - أخشاه... وأريده!

غادرا الغرفة أخيراً، واهتم طاقم الموظفين بغرفة النوم.

كان لوكا، ولكونه معتاداً على الخدم يحومون حوله ويلبّون رغباته كافة، يستاء كلما توقّفت فيليسيتي عن الكلام في وسط الجملة أو أخفضت صوتها أو همست عند دخول روزا.

صاح لوكا ذات صباح وهما يرتشفان القهوة:

- بالكاد تتكلم الإنكليزية، وبالرغم من هذا تتصرفين كما لو أنك في مأتم.

- أشعر وكأنني في مأتم، أتدرك كم أن هذا المكان مضجر؟ أنت لا تشعر بذلك إذ تغادر للعمل صباح كل يوم.

- ظننتك منهمكة بدروسك الغالية.

- دروسي هامة بالنسبة لي.

فانزعج لوكا وتابع قراءة الصحيفة، بينما قالت:

- لمجرّد أنك تعتبر بأن على المرأة أن تقف حافية القدمين وحاملاً في المطبخ!

صاح ونظر إليها من فوق الصحيفة:

- ما عاذ الله! أتتخيلين ما سيحدث إن أنجبنا طفلاً إلى هذا النعيم العائلي الذي نعيشه!

لم ترد فيليسيتي التحدّث في الموضوع، وقد أنقذت من ضرورة الردّ لدى ظهور روزا، تحمل إناء القهوة، وتملأ فنجانه قبل أن يطلب منها

ذلك. وفجأة شعرت بأنها لا تستطيع أن تتحمل أكثر.

إن كان لوكا يريد التصرّف بطبيعية أمام الموظفين ويقول كلّ ما يخطر بباله، فستحذو حذوه.

- أتعي بأنني لا أعرف كم ملعقة من السكر تضع في قهوتك؟

- وما دخل هذا بالموضوع؟

- له كل الدخل. أنت زوجي، ولكنني لم أحضر لك يوماً قهوتك، ولم أكوِ لك قميصاً، كما أنني لم أحضّر لك العشاء يوماً....

صاح:

- أنتِ تناقضين نفسكِ. كنت تقولين لتوّكِ كم أن دروسك هامة بالنسبة لكِ، والآن تتذمرين لأنه لا يتوفّر لك الكثير من الأعمال المنزلية لتنجزيها. يمكنني أن أتحدّث إلى روزا، أنا واثق من أنها تستطيع أن تترك لكِ كومة من الثياب الوسخة لتغسليها.

- آه، أنت لا تطاق.

ووضعت فيليسيتي المنديل جانباً وحبست الدموع التي ازدحمت في عينيها.

يا إلهي كم هو عنيد، وصعب، ولكنها تحبّه. وبالرغم من أن كلامها سيبدو تافهاً، فهي تريده برمّته لا جزئياً، تريده لها وحدها.

- علي الذهاب إلى فلورنسا اليوم.

كان يقرأ الصحيفة ولا يهتم لشيء، يقلّب صفحاتها وهو يلتهم فطيرة ويشرب كوب القهوة الثالث.

نظرت فيليسيتي إلى المطبخ النظيف اللمّاع وحاولت تخيل لوكا برفقة طفل يجلس على كرسي عال، ويرمي البيض على الأرض، ويفسد عليه سكينة الصباح التي يحبّها كثيراً.

- فلورانسا؟

ارتشفت جرعة من القهوة بالحليب، وأملت ألاّ تتقيأها حتى يغادر

لوكا إلى العمل على الأقل. اعتادت صوت المروحية التي تأتي لأخذه في السابعة صباحاً إلى الفندق في روما، ولكن فلورانسا مكان بعيد.

- وقد أبيت الليلة هناك، هذا رهن بكمية الأعمال التي تنتظرني.

- حسناً.

سمعت صوت المروحية في البعيد، ولكن عندما نظر لوكا إلى ساعة يده، وارتشف الجرعة الأخيرة من القهوة، لم تعد تريده أن يرحل.

قبّلها على خدّها ببرودة، ولكن عندما دخلت روزا المطبخ، طبع قبلة أشدّ عمقاً على وجهها، إلاّ أن رائحة عطر ما بعد الحلاقة أزعجتها بسبب حالتها، وفيما أشاحت بوجهها بعيداً، لاحظت نظرة الارتباك في عينيه.

قال:

- سأتصل بك عندما أصل إلى هناك، ستكون الأمور قد توضحت أكثر.

- لوكا.

كان قد وصل إلى الباب. بدا خلاباً في بذلته الداكنة وقميصه الأبيض، وعنقه الأسمر، وهو يحمل بيده حقيبة سوداء. بدا غاضباً، ومنزعجاً، ومحتاراً، ولكن وسيماً جداً.

- أتمنى لك رحلة آمنة!

بدت كلماتها تافهة وجافة، في حين كل ما أرادت قوله هو أحبك. أرادت إخباره بأنها لم تخف في حياتها أبداً كاليوم الذي تأكدت فيه من حملها.

تنهد، وابتسم، لكنه لم يقل شيئاً. والآن لم يعد بإمكانها فعل شيء سوى الجلوس وشرب القهوة بالحليب، والجلوس والاستماع إلى صوت المروحية ترتفع وتأخذه بعيداً عنها.

* * *

لم تعتد فيليسيتي على الشعور ببرودة الثلج تحت قدميها، ولكنها أحبّت

هذا الشعور، وهي تسير وتخبيء وجهها داخل قبعة المعطف الذي اشترته.

لقد عرضوا عليها الحصول على سائق، وسيارة، ولكنها رفضت، وصمّمت الحصول على وقت لتتجول في القرية بمفردها، وتعود عندما تصبح جاهزة لذلك.

كانت الجبال رائعة، والمناظر خلابة تخطف الألباب. وأخذت فيليسيتي وقتها، فتوقفت عند النصب التذكاري. ومرّت بالقرب من حقل عنب ودخلت إليه ومسحت الثلج عن الحجر الموضوع على المدخل وقرأت ما كتب: سانتانو، جيوردانو، وريتوني بالتسلسل، وشعرت كما لو أنّ القدر يسخر منها.

لوكا، ريكاردو، وآنا.

أكّدت كل كلمة على عبثية مثلث الحب الذي دخلته، وكل حرف أبعدها اكثر عن عالم لوكا الذي يستحيل أن تشعر يوماً بالانتماء إليه.

وبالرغم من أنها لا تجيد الإيطالية، تمكّنت من إيجاد الصيدلية. فدخلتها وعرفت أنها لن تواجه صعوبة كبرى في إيجاد اختبارات الحمل. ابتسمت لها الموظفة، وعرضت عليها المساعدة، ولكن فيليسيتي رفضتها بتهذيب وفضلت البحث بنفسها عما تريده، فذلك أسهل من محاولة شرح ما تريده بالايطالية.

وجدت ضالتها، فوقفت أمام رف اختبارات الحمل وبدأت تتفحّصها باحثة عن الاختبار الأسهل.

- أتعرفين عمّا تبحثين؟

أبعدت يدها إلى الخلف واستدارت مرتابة:

- آنا! أحاول إيجاد بعض الباراسيتامول.

عجزت عن إفهام الموظفة ما أريد.

عبست آنا.

- ظننت أن كارا تتحدث الانكليزية، ما من مشكلة سأدلّك.

وضحكت بصوت منخفض.

- آمل لمصلحتك طبعاً ألا تحتاجي إلى واحد من هذه الاختبارات قبل فترة طويلة، فلو كنت مكانك، ما كنت لأحلم حتى بإخبار لوكا بأنه سيصبح والداً.

نظرت عن كثب إلى فيليسيتي وفسّرت لها:

- هذه اختبارات حمل، أتفهمين الآن ما أقوله؟ أتتخيلين لوكا سانتانو والداً؟ صدقيني، فأنا أخبرك عن خبرة، بأن هذا آخر ما يفكر به.

ظهرت نظرة خبث في عيني آنا وارتسمت ابتسامة شفقة على فمها عندما لاحظت بأن فيليسيتي تحدّق إليها:

- ظننت مرة أنني حامل منه.

- وماذا قال؟

لم ترد سماع الإجابة، ولكنها أرادت أن تعرف على الأقل ما عليها توقّعه.

تنهدت آنا بشكل مأساوي:

- الكثير، أنتِ تعرفين لوكا، تتمحور حياته كلها حول العمل، وليكن الله في عون المرأة التي تحاول تغيير ذلك!

- ولكن ماذا قال عن الطفل؟

ألحّت فيليسيتي فيما نظرت آنا إليها بحدّة أخافتها.

- من حسن حظي لم يكن هناك من طفل، ولكن لوكا أخبرني بصراحة بأنه لا ينوي أن يصبح أباً، حتى ولو صورياً. وطلب مني أن أجهض. ولكن الحمد لله، لم يكن من داع لذلك. فلنحضر لك الدواء الذي تحتاجينه، آمل أنكِ لا تعانين من شيء خطير.

أومأت فيليسيتي وهي لا تزال مستاءة من كلمات آنا، وقالت:

- أعاني من صداع ليس إلا.

- آه، صداع! هذا ما تصاب به الزوجات إذاً! عليّ تجربة ذلك مع

ريكاردو.

أرادت فيليسيتي أن ترد عليها بقسوة ولكنها عادت فغيّرت رأيها إذ رأت وللمرة الأولى ابتسامة حقيقية خالية من الكذب على شفتي آنا.

- أنا أمازحك، هيا فلنحضر لك الدواء وأحضر لريكاردو أيضاً دواءه. فقد كان يشتكي هذا الصباح من ألم في صدره. وللحظة ظننت أنني سأسعد وأن الحظ ابتسم لي، ولكن سرعان ما تبيّن أنه عسر هضم ليس إلا.

ورأت الصدمة التي علت وجه فيليسيتي، فابتسمت مجدداً:

- تسهل إغاظتك يا فيليسيتي، عليك أن تكوني قوية أكثر.

دار كلام بالايطالية وضعت على أثره الموظفة دواء ريكاردو وبعض أدوات التجميل التي طلبتها آنا.

تنهدت آنا ثمّ قالت:

- المكان مضجر جداً هنا. والآن وبما أن ريكاردو يصرّ عليّ لأترك العمل، ما من شيء ألهي نفسي به سوى العناية بوجهي. أفهم بأنكما كنتما منشغلين يوم السبت، ولكن علينا أن نتناول القهوة على الأقلّ، وأن نصبح صديقتين. فمن الجميل الحصول على شخص من سني لألعب معه.

ابتسمت فيليسيتي للعبارة التي استخدمتها آنا. فآخر ما تريد فعله هو اللعب مع آنا، إذ سينتهي الأمر بهما بالشجار حتماً.

- ربما في وقت لاحق، إذ عليّ أن أعود إلى المنزل الآن لأدرس.

- سأذكّرك بذلك، إلى اللقاء.

وقبّلت فيليسيتي على خدّها وانصرفت.

ما إن غادرت آنا حتى عادت فيليسيتي إلى حيث وجدتها آنا واشترت ما تبحث عنه، وتجنبت نظرات الموظفة وأملت أن يتمتع موظفو الصيدليات بالقَسَم الأخلاقي الذي يتمتع به الأطباء، أي السرية حتى لا

يعرف لوكا بالأمر قبل أن تبادر إلى إخباره بنفسها.

عاشت فيليس الدقيقتين الأطول في حياتها. جلست في الحمام تحدّق إلى قطعة من ورق، وقد رمت بمعطفها على الأرض، ووشاحها لا يزال ملتفاً على كتفيها، فرغبتها بأن تعرف وتتأكّد تخطت كل حدود. جلست بهدوء تنتظر قدرها وعندما ظهرت الإشارة الزهرية اللون لم تتفاجأ كثيراً، بل كانت بمثابة تأكيد لأمر تعرفه حق المعرفة.

- سنكون بخير.

وضعت فيليسيتي يدها على بطنها ومسّدته. ونظرت إلى نفسها في المرآة وتساءلت كيف يمكن ألاّ يتغير شكلها في حين أن الكثير قد تغيّر. فسوف تصبح أمّاً ولوكا سيصبح أباً.

سوف تنجب ابن لوكا.

كان الأمر مخيفاً، ومربكاً، وغير متوقع، ولكن وبالرغم من صراعها الداخلي، شعرت بجمالية اللحظة. لا تعرف إن كان السبب في ذلك هو غريزة الأمومة، أو حبّها للوكا، ولكن يستحيل أن تندم على حملها، وترفض طفلاً هو ثمرة الحب.

الحب!

ولكن هل يحبّها لوكا؟

عادت إليها كلمات آنا لتخيفها. وشعرت بدوار وهي تحاول تخيّل حياة لوكا المنظمة والمنهمكة تنقلب رأساً على عقب بسبب طفل، طفل أنجبته امرأة وجب أن تكون حلاً مؤقتاً ليس إلاّ.

خرجت من الحمام واستلقت على السرير تحدّق مشدوهة إلى العلامة الزهرية اللون التي ظهرت على الاختبار. وتفكّر أهذه البداية أو النهاية؟

- سيدتي.

وبالرغم من أن روزا قرعت الباب بقوة، بالكاد سمعت فيليسيتي القرع، فأخفت الاختبار تحت الوسادة ثم نظرت نحو روزا.

- اتصل السيد لوكا عندما كنت خارجاً وقال إنه سيعود هذه الليلة.

- شكراً لكِ يا روزا.

استدارت السيدة العجوز لتغادر ثم غيرت رأيها. جلست إلى حافة السرير ووضعت يدها على يد فيليسيتي بدفء.

- كنت محقة فيما قلته هذا الصباح. أنت تحتاجين إلى بعض الوقت بمفردك مع زوجك. هذه الليلة ستطهين العشاء وأنا سأغادر، هيا بنا.

وابتسمت لفيليسيتي التي كانت تنظر إليها باستغراب وقالت:

- سأعلّمك.

نظراً للصدمة التي تلقتها لتوّها، استراحت فيليسيتي بالعمل مع روزا في المطبخ. كانت روزا تستمع إلى موسيقى ايطالية من الراديو القديم، وعملت المرأتان بصمت فيما أرشدتها روزا إلى أسرار المطبخ الإيطالي.

علّمتها أسرار المطبخ الإيطالي الأصيل لا المعكرونة المجلّدة والصلصات الجاهزة. وتحت إشراف روزا، حوّلت فيليسيتي الكثير من البطاطا المقشرة إلى كتل صغيرة وغطتها بالطحين. ثمّ قطعت البصل والفطر، وخفقت البيض وقلت اللحم المقدّد، وحضرت كل ما يلزم. كما تذوّقت جبنة البارمزان الأصلية وأحبتها كثيراً، فباتت من أكلاتها المفضلة إلى جانب الشوكولا والبوظة.

- شكراً لكِ يا روزا.

وابتسمت فيليسيتي فيما ارتدت روزا معطفها ونادت زوجها بالايطالية.

- أنت تلميذة مجتهدة، آمل أن تقضيا ليلة ممتعة معاً.

وفيما استدارت لتغادر، اجتاحت فيليسيتي نوبة من القلق. لقد انتظرت هذا منذ أسابيع طويلة، أرادت أن تقضي أمسية مع لوكا بمفردهما. والآن بعد أن أوشكت على نيل مبتغاها تراجعت، فهي تخشى ردّة فعله على الخبر الذي ستنقله إليه. أرادت أن تطلب من روزا البقاء،

ولكن في قرارة نفسها، عرفت بأن عليها مواجهة هذا بمفردها.

فسوف تنجب طفلاً!

وستخبر لوكا بذلك هذا المساء.

www.elromancia.com

٨ - طيف الماضي

تملك وسيلة نقل لوكا بعض الحسنات، فصوت المروحية منح فيليسيتي الوقت لتقوم بالتحضيرات الأخيرة. أضاءت الشموع، ووضعت شريطاً موسيقياً وجدته على مكتب لوكا آملة أن يحب نوع الموسيقى الذي بدأ يملأ الصالة. ووقفت قرب المدفأة.

لقد استحمت وجلست قرب النار ممّا أكسب وجنتيها بعض اللون. كان شعرها الأشقر يتوهج وينساب على وجهها ورقبتها، وقد ارتدت فستاناً من الكشمير الزهري اللون. لم تكن تشعر بالغثيان الذي لا يفارقها عادة، وقد سرّت لذلك. راح قلبها يقفز عندما اقترب صوت المروحية وراحت تتخيل ردّة فعل لوكا لدى سماعه الخبر.

- أين روزا؟

لم يكن كلامه رومنسياً ولكن نظراً لما حدث هذا الصباح، لم تستطع فيليسيتي أن تلومه. بالكاد قبّل خدّها وسار نحو الصالة فتبعته.

قالت فيليسيتي فيما رمى لوكا سترته على الكنبة:

- أعطيتها إجازة هذه الليلة، ظننت أنه سيكون جميلاً أن نقضي بعض الوقت معاً.

- لم تعطني هذا الانطباع صباح اليوم، بل على العكس شعرت وكأن كل ما تحتاجين إليه هو قضاء بعض الوقت بمفردك.

بالرغم من استيائها من كلامه، عرفت فيليسيتي أنه محقّ. فمنذ مجيئهما إلى ايطاليا، لم تعد الزوجة المحبة اللطيفة التي تزوجها منذ مدّة قصيرة وقد

زاد شعورها الدائم بالغثيان الأمور سوءاً. ما إن يفهم لوكا السبب الذي أجبرها على الابتعاد سيتمكنان من متابعة الأمر سوياً.

والآن كل ما عليها فعله هو إخباره الحقيقة.

- لقد احتجت إلى بعض الوقت بمفردي هذا الصباح.

ما زال الوقت مبكراً على إخباره، عليها أن تنتظر ريثما يهدأ وتابعت:

- ولكن الآن....

قاطعها فسكتت:

- غيّرت رأيك، بكل بساطة لم تهتمّي لرغبتي بالتكلم معك في الفندق، ولم تكترثي باجباري على الابتعاد عنك طيلة هذا الأسبوع! لقد قرّرت الآن أنك بحاجة للاستمتاع بوقتك وهذا كاف! ألم يخطر ببالك أنني قد أكون عرفت يوماً سيئاً؟ وبأن آخر ما أحتاجه الآن هو نقاش عميق، وبأن كل ما أريده هو العودة إلى المنزل وتناول العشاء؟

- أفهم بأنك مستاء، وأعرف بأنك شعرت بأنني أبعدك عني....

قالت فيليسيتي هذا فيما أزال ربطة عنقه وسكب لنفسه عصيراً منعشاً.

- أتفهمين حقاً؟

شرب ما في الكوب دفعة واحدة، منذ أيام وهي تنبذه وتشمئز منه إذا لمسها. لقد انزعج طيلة اليوم ممّا جرى هذا الصباح وأراد أن يلومها، ويبقى غاضباً منها، ويجعلها تتذوق طعم الألم الذي عرفه. ألا يكفي أنه لم يستطع مقاومة البعد عنها وعاد إلى المنزل؟ والآن زال كل ألمه لمجرّد رؤيتها تتلهف لرؤيته وترتدي هذا الفستان.

كانت تبدو خلاّبة في هذا الفستان الزهري. أراد أن يلمسها ويشعر بها، والأهمّ من هذا كله هو أنه أراد رؤية نار الرغبة تستعر في عينيها.

لقد عادت المرأة التي تعرّف إليها، ولكنه لم يستطع مجاراتها فوراً

والعمل على وتيرتها وبحسب رغباتها. فكبرياؤه على المحك وقد آلمته تصرفاتها السابقة.

- لقد طهوت لك الطعام.

ردّ بقسوة:

- ولِمَ فعلتِ هذا؟ لم أحضرك من النصف الآخر من العالم كي تطهي لي الطعامَ. روزا هي الطاهية، لقد وظفتها لتطهو.

مرّر يداً غاضبة في شعره وتلاشت رباطة جأش فيليسيتي. صحيح أنه خلاّب، ولكن فلتحل اللعنة عليها إن كانت ستسمح له بالتحدّث إليها بهذه الطريقة!

ردّت:

- وأظن بأن للزوجة واجبات أخرى تؤديها؟

- صحيح، لقد أصبح لدي الآن مدبرة منزل لا تطهو وزوجة ترفض العلاقة الطبيعيّة بين أي زوجين.

جاءت كلماته بمثابة صفعة لها فزادت من حدّة غضبها وأجابته متحدية:

- إذاً ربما عليك الانتباه أكثر إلى طريقة اختيارك لموظفيك، إذ يبدو لي أنك لا تحسن الاختيار.

- أظنك تتحدثين عن ماثيو، أتظنين بأنه كان ليتحمّل هذا.

جاء صوته بارداً كالثلج، وعرفت فيليسيتي أن شجارهما قد بلغ نقطة حادة. صمت لبرهة ثمّ تابع:

- أكان ليرضى بأن تقبع زوجته في المنزل وبالكاد تتحدث إليه وتدّعي بأنها نائمة كلما حاول الاقتراب منها؟ أتظنين بأنني لا أعرف بأنك تدعين النوم؟

- أنا أعرف على الأقل كيف أتصرّف معه.

ندمت على ما قالته. فما من مجال للمقارنة بين علاقتها مع لوكا

وعلاقتها مع ماثيو. استشاط غيظاً، وشدّ كثيراً على الكوب الذي يحمله بيده فظنت فيليسيتي أنه سينكسر.

- أعليَّ أن أذكرك بأن ذلك النكرة ابتزّك؟

ورمى الكوب أرضاً، فخافت فيليسيتي وتابع كلامه العاصف:

- لم أعاملك يوماً إلا باحترام! هل أجبرتك على إقامة علاقة معي عندما لم تريدي ذلك؟ وأنت تملكين....

وراح يبحث عن الكلمة المناسبة ويطقطق بأصابعه، قالت له:

- الجرأة، أظنك تبحث عن هذه الكلمة.

صاحت، وقد تملّكها غضب شديد. لم ترد أن تتشاجر معه، كان يفترض بهذه الليلة أن تكون كاملة، وأن تخبره فيها عن الطفل. ولكن عوضاً عن ذلك، وجدت نفسها في شجار ضار معه، تنهال عليه بشتائم لن تستطيع التراجع عنها.

- نعم، يا لوكا، أنا أملك الجرأة لأتوقّع من زوجي أن يفهم بأن زوجته لا ترغب بإقامة علاقة، وعليه احترام هذا عوضاً عن أن يهرع إلى سرير امرأة أخرى.

أغلق عينيه لوهلة ثمّ فتحهما ولاحظت الألم فيهما فتمزقت أحشاؤها. ولكن ما قاله بعد ذلك كان قاسياً جداً، أقسى ممّا تخيلته يوماً.

- أعرف على الأقل بأنها تريدني.

لا تعرف لكم من الوقت بقيا صامتين.

- فيليس.

ناداها بصوت منخفض، وهزّ رأسه وحاول أن يلمسها، ومدّ يده صوبها فأزاحتها، وقد شحب وجهها محاولة تخيل ما سيقوله:

- لم يكن يجدر بي قول هذا.

- ولِمَ لا؟ فهذا ليس بسرّ.

- ما كان عليّ قول هذا لأنه ليس صحيحاً.

- حقاً؟

انحدرت الدموع من عينيها، وتابعت:

- آسفة لأنني لا أجيد هذا، ولأنني لست كصديقاتك، لا أعرف القواعد يا لوكا لأنني لم أمارس هذه اللعبة سابقاً. لا أعرف ما هو حقيقة وما هو خيال. لا أعرف كيف يتعيّن عليّ أن أتصرّف في حين يظن نصف سكان القرية بأنك تقيم علاقة مع آنا. وإن قصدت بكلامك هذا أن تطردني خارج غرفتك، فقد نجحت محاولتك لأنك أذيتني!

راحت ترتجف ووضعت يدها على صدرها:

- لقد أذيتني وقد وعدتني ألا تفعل هذا أبداً.

اقترب منها بسرعة وغطّى وجهها بقبلاته، وراح يطمئنها ويخفف من مخاوفها، وغضبها.

عانقها بشغف، وتجاوبت معه كقطعة عجين طيّعة.

أراد الحفاظ على هذه اللحظة للأبد، وأن يغرق بسحر جمالها، ويبقي شعورها هذا في قلبه.

- فيليس.

جاءت كلمته أنّة خفيفة، وهي مستسلمة تماماً للمساته، مرّت دقائق قبل أن يدركا أن الهاتف يرنّ، وبقيا في مكانهما يرفضان أن يسمحا لأحد بأن يقطع عليهما خلوتهما، فيما ملأ صوت النار الغرفة.

الآن...

أغلقت عينيها، وتنشقت رائحة عطر ما بعد الحلاقة، وللحظة شعرت بالأمان، وبأنّ ما يربطهما الآن عميق جداً، عميق إلى حدّ أنه لا يمكن لأي عنصر من الخارج زعزعته.

- لوكا.

همست، والهاتف يرن من دون توقف، ثمّ تسمّرت بين ذراعيه وهو

يلعن ويشتم من يقطع عليهما خلوتهما.

- قد يكون الأمر هاماً.

قال هذا فيما ذهب ليجيب على الهاتف.

- آلو.

تحدّث بصوت مرتفع وحاولت إقناع نفسها بأن ما من خطب. فالايطاليون يصيحون دائماً عندما يتحدّثون إلى الهاتف، وقد خبرت هذا عن كثب.

أغلق سماعة الهاتف وعاد نحوها ولم ترتسم على شفتيه ابتسامة مطمئنة:

- إنه ريكاردو، لقد تعرّض لنوبة قلبية.

ارتمت على الكنبة وهزت رأسها:

- آه يا إلهي! لقد رأيت آنا هذا الصباح وأخبرتني أنه عانى من ألم في صدره ولكنهم ظنوا بأنه مجرد عسر هضم.

- لا، إنه قلبه، لقد نقلوه إلى مستشفى في روما، إنه المستشفى الأفضل ولكنه أوشك أن يموت على الطريق. تمكّنوا من إنعاشه ولكن حالته خطيرة وآنا متضايقة جداً.

أوشكت أن تعلّق على الموضوع لكنها تراجعت، فريكاردو صديق حميم للوكا، وآخر ما يحتاجه الآن هو تعليق ساخر من زوجته. ولكن وبالرغم من هذا، تشك فيليسيتي في مدى استياء آنا. فما زالت كلماتها حول زوجها تطن في أذنيها، فلو أنها استدعت طبيباً، أو نقلته إلى المستشفى عوضاً عن شراء دواء لعسر الهضم له، لكانا تجنبا حتماً...

- عليّ أن أذهب.

- إلى آنا؟

قالت هذا، ثمّ أملت ألاّ يكون قد سمعها.

- إنها منزعجة، وهي بمفردها في المستشفى. لم أستطع أن أقول لها لا، هيّا تعالي معي.

أومأت نفياً، فمجرّد ذكر كلمة المستشفى جعلها ترتجف وأعاد إليها ذكريات مؤلمة عن وفاة جوزيف.

- لا أستطيع.

- لا تستطيعين أو لا تريدين؟

كانت كلماته حادة ولكن عندما رأى الحزن في عينيها، توقّف عن الكلام، ووضع يده على خدها.

- هناك توفي جوزيف.

ردّ برقة وقد تأثر لحزنها:

- آه فيليس، آسف جداً لألمك ولكن عليكِ أن تفهمي شعور آنا، فقد مررتِ بالتجربة ذاتها، ولا بدّ أنك تفهمين لما تحتاج إليّ؟

ولكن فيليسيتي لم تكن تفهم هذا، فهي لم تلعب يوماً دور المرأة العاجزة الضعيفة. عادت بفكرها إلى عام مضى، إلى هذه المدينة بالذات، وتذكرت جلوسها إلى كرسي قاس، فيما جوزيف يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقد ذهب والداها المرهقان من الرحلة الطويلة إلى الفندق ليستريحا قليلاً.

يا إلهي! لم تكن تجيد الإيطالية حتى، ولكن لم يخطر ببالها أبداً إيقاظ والدها في منتصف الليل ليأتي ويساندها. لمَ لم تحضر آنا سيارة أجرة؟

- لا بد أن لديها أصدقاء آخرين، لمَ عليك الذهاب؟

عاد الغضب الآن ليظهر في كلماته:

- لأنه كلّما حدث شيء ما في هذه القرية يتصلون بي.

لان صوته وأمسك بيديها، ونظر إلى عينيها ورجاها أن تفهمه:

- لو كنتِ بمفردكِ في المستشفى، لكان ريكاردو فعل الشيء ذاته. أنا لا أتوقع منه أقلّ من هذا، ولا أستطيع أن أخذله.

- ولكن يمكنك أن تخذلني!

سمعت الغيرة في كلماتها، وأحسّت بالاستسلام في عينيه فيما هزّ رأسه، وبالرغم من ذلك، عجزت عن ردع نفسها. لقد عنت لها هذه

الليلة الكثير، لقد أرادت أن تخبره عن الطفل بل احتاجت إلى ذلك. ولكن لا، فما إن طقطقت آنا بأصابعها حتى هرع لوكا إليها. قالت:

- ولكننا عشنا لتوّنا أجمل اللحظات، وثمة أمور علينا التحدّث بشأنها.

هز رأسه غاضباً:

- آنا! آنا! آنا! أتعرفين؟ أشعر بالأسف حيالك! فأنت تتصرفين كفتاة غيورة في الثانية من العمر. أقول لكِ مراراً وتكراراً بأن علاقتي بها انتهت. مضى على علاقتنا سنوات....

صاحت فيليسيتي:

- ولكنها حاولت جذبك الأسبوع الفائت.

- لقد اقترفت غلطة! والآن باتت تعرف بأن علاقتنا انتهت! أنا متزوج بك وأنا تحترم هذا! ألم تحاول أن تصادقك! ألم تتصل بك أكثر من مرة لدعوتك لشرب القهوة؟ تتذمرين لأنكِ وحيدة ولا تجدين من تتحدثين إليه، وبالرغم من هذا عندما يمدّ أحدهم يد الصداقة نحوكِ ترفضينها!

بدأت تصرخ لأنه لم يستطع فهم وجهة نظرها:

- كانت عشيقتك! كيف عساي أن أصادق امرأة أقمت علاقة معها؟ أو تدري شيئاً؟ ربما عليّ أن أعتاد هذا الأمر، فإن أحصيت عشيقاتك السابقات، فلن يبقى من امرأة أصادقها.

لم تعتد فيليسيتي أن تتذمّر هكذا، فهي لم تقع في الحبّ من قبل، ولم تختبر يوماً كلّ هذه المشاعر. لم تتعرّف إلى نفسها عندما قالت هذه الكلمات وسخرت من لوكا بهذه الطريقة.

مرّر يده على خدّها، وهز رأسه باستسلام:

- أتعلمين؟ ظننتُ أنك رقيقة ولطيفة، أن امرأة محبة حنون تختبئ تحت هذا المظهر القاسي. ولكن يبدو أنني أسأت تفسير الأمور

وأخطأت.

شاهدته يغادر، وتوقف قلبها عن الخفقان لشدة الألم، شاهدته يغادر بالسيارة ولم تستطع أن تذرف دمعة واحدة.

تُرى، هل أساءت تفسير الأمور؟ نظرت من حولها بحزن، ثم أطفأت الشمع وتناولت حذاءها وشقّت طريقها عبر السلالم إلى السرير الكبير الوحيد. عبثاً حاولت ألا تتخيل آنا بين ذراعي لوكا، هذا الرأس الجميل يستند إلى صدره. جاهدت لتصدّق بأن لوكا لن يقدّم لها سوى دعم أخوي ليس إلا، تماماً كما أقسم.

كانت الملاءات باردة ووضعت يدها على بطنها، تحاول أن تشعر بالحياة التي تنبض في داخلها.

إنها تحمل طفل لوكا.

استلقت في مكانها لفترة طويلة تحدّق إلى السقف. كان الصمت يخترق الغرفة ويجعل أفكارها تصرخ بصوت مرتفع. جلست في مكانها تنتظر عودة السيد ريثما تنتهي منه آنا.

وأخيراً، ومع بزوغ الفجر، وبعد أن استسلمت لشكوكها ومخاوفها، نظرت إليه بعينين ملؤهما الغيرة والألم، عندما دخل غرفة النوم وخلع معطفه.

- كيف حاله؟

تنهد:

- حاله مستقرة، لم أتمكّن من رؤيته لأكثر من دقيقة، قال الطبيب بأن عليه أن يستريح.

- ولكن....

جلست محتارة تنظر إليه. لم يبد يوماً وسيماً إلى هذا الحدّ. لقد بدأت ذقنه تنمو، وشعره الأسود مليء بنتف الثلج، وتاقت لتلمسه، لتمسّد وجهه، لتجذب جسمه المنهك والبارد إلى السرير الدافىء، لتعانقه حتى

يزول الحزن عن وجهه. ولكن وبالرغم من روعة ما كان سيحدث، لم يبد لوكا يوماً بعيداً عنها إلى هذا الحدّ.

عبثاً حاولت التحدث بنبرة عادية، وإيضاح وجهة نظرها من دون أن تبدو غيورة، قالت:

- مضى على غيابك ست ساعات.

- كانت آنا مستاءة.

نظر إليها بتحدٍ وغضب.

- وطبعاً اضطررت إلى التخفيف عنها ومواساتها.

كان يفترض بالليلة أن تكون مميزة. وَجب عليهما التحدث عن الأطفال، والمشاريع، والمضي قدماً. وعوضاً عن ذلك تطفّلت آنا عليهما مجدداً، وجاءت لتفسد عليها مشاريعها، وقد سئمت هذا.

قال لها بنبرة باردة كالثلج:

- في الواقع، اضطرت آنا إلى مواساتي بدلاً من أن أواسيها. فقد كان ريكاردو بمثابة والد لي بعد وفاة والدي. ورؤيته ممدداً هناك، عجوزاً وضعيفاً فجأة، صعقتني بشكل لم أتوقعه، وتفهمت آنا ما أشعر به، إذ لم أتوقع يوماً أن تتفهم زوجتي ذلك.

٩ - انتهت اللعبة

- كنتما رائعين.

أثارت نبرة صوت آنا غضب فيليسيتي، إلاّ أنها لزمت الصمت وهي تراها تسكب لها الكأس الثالث من مشروب الليموناضة الساخن الذي تفضّله. جلست آنا إلى الكنبة وشعرها منسدل على كتفيها ومعطفها غير مغلق يبرز بعض مفاتنها.

لقد رأت فيليسيتي آنا هذه الأيام أكثر بكثير مما رأت لوكا منذ تعرّض ريكاردو للنوبة القلبية. كانت آنا تظهر في المطبخ ترتدي الكاشمير ثم تختفي برفقة لوكا، ولا يعودان إلاّ في وقت متأخر فيخبران فيليسيتي عن تقدّم حالة ريكاردو الصحية، ثمّ ينصرف لوكا لإجراء بعض المخابرات الخارجية، ويوصل بعدها عشيقته السابقة إلى منزلها.

- أين روزا؟

سألت آنا وهي تشرب مشروبها.

- أعطتها فيليسيتي إجازة هذه الليلة أيضاً.

لم يخفِ على آنا انزعاج لوكا، وقالت:

- إنها تريد البقاء بمفردها مع زوجها يا عزيزي، وبصراحة لا ألومها أبداً.

أوشكت فيليسيتي أن تردّ عليها ولكنها عدلت عن ذلك عندما تابعت آنا كلامها:

- روزا امرأة صعبة المراس جداً ولا أفهم كيف تبقيها في منزلك.

أشارت فيليسيتي:

- ولكنكِ كنتِ تتفقين معها.

- فقط لأنني خرجت من حياة حبيب قلبها لوكا. كانت تعاملني بازدراء عندما كنت هنا، والآن وبعد أن رحلت أصبحت تقدّسني. لا ألومك على رغبتك بالتخلص منها والحصول على المنزل لكما بمفردكما. فعندما يعود ريكاردو إلى المنزل سأفعل له كل شيء بنفسي. لقد حضّرت المستشفى لمجيء ممرضات إلى المنزل، ولكنني لن أقبل بهذا. سأعتني به بنفسي. فقد كان ما جرى....

ردّت فيليسيتي باستعلاء:

- صحوة ضمير.

ابتسمت آنا ممتنة:

- هذا ما كنت أحاول قوله، فرؤيته مريضاً وضعيفاً هكذا.

وأغلقت عينيها وانهمرت منهما دمعة:

- آسفة لأنني اتصلت بكما تلك الليلة وأزعجتكما، ولكن الممرضة قالت لي أن أعود إلى المنزل وأحضر دواءه ثم أعود إلى المستشفى. فقد كانت دموعي تضايق ريكاردو لم يكن يجدر بي إزعاجكما....

- هذا هراء.

جلست فيليسيتي بجانب آنا وأمسكت بيدها وضغطت عليها، فجاءت ردّة فعلها هذه البادرة الوحيدة اللطيفة منذ لقائهما، وتابعت:

- لا تقولي هذا، فنحن أصدقاء.

نظرت إلى الأعلى، فرأت نظرة الشكر في عيني لوكا والابتسامة التي ارتسمت على شفتيه، وتضاعف شعور الذنب الذي يتآكلها منذ أيام.

لم تكن آنا مستاءة فحسب بل كانت منهارة.

- يستحسن بي أن أرحل.

ووقفت تغلق أزرار معطفها وتشير إلى لوكا ليجلس، قالت:

- أستطيع الذهاب سيراً على الأقدام إلى المنزل، فلن أسير سوى لبضع دقائق وسيفيدني الهواء النقي.

- لا يفترض بك أن تسيري.

قالت فيليسيتي هذا وناولت لوكا مفاتيحه وتابعت:

- انهمر الثلج مجدداً، سيقلّك لوكا إلى المنزل.

وقفت في الردهة، ومسحت الضباب عن النافذة، وشاهدت لوكا يفتح لآنا باب السيارة ويساعدها لتجلس، وضع يده خلف ظهرها ببادرة لطيفة كانت منذ بضع ساعات لتثير غيرة فيليسيتي، ولكن الآن، اختلف الموضوع، فقد تأثرت كثيراً لشعور آنا بالحزن.

عندما عاد لوكا إلى المنزل، كان متعباً، وشاحباً، وغاضباً.

صاح وهو يدخل ويرمي معطفه على الكنبة ويخلع حذاءه.

- هل طال غيابي؟ هل توقعت أن أوصلها حتى العتبة وأعود؟

- طبعاً لا.

تابع من دون أن يكترث لما قاله:

- عرضت عليّ شرب القهوة، ولكن طبعاً رفضت إذ لم أرد تزويدك بالمزيد من الحجج للومي.

- لوكا أرجوك لا أريدنا أن نتشاجر.

- ولا أنا.

فجأة لم يعد يشعر برغبة في الشجار. لقد ظهرت خطوط حول عينيه، وأدركت عندها كم أثرت فيه هذه الأيام والأسابيع الأخيرة.

خوفاً من أن يتكرّر ما حصل في منتجع الغولف، كان لوكا يقوم بزيارات مفاجئة لكل فندق من فنادقه، ويعقد اجتماعات طارئة، ويغادر المنزل مع الفجر ويعود في وقت متأخر ليحرص على ألا يعاني شخص آخر كما عانت عائلتها.

وماذا فعلت هي في المقابل؟

تذمرت لأنها تشعر بالوحدة تماماً كما تفعل الفتيات الصغيرات للفت الانتباه إليهنّ. والآن صديقه الحميم مريض، وهو مضطر لتحمل زوجة غيورة، تلاحقه بنظرات الشك.

لن يحتمل هذا بعد الآن.

- لا أريد أن أتشاجر معك يا لوكا. آسفة لأنني شككت بك. فرؤية آنا الليلة بهذه الحال جعلتني أدرك كم كنت أنانية، ليس بحقها فحسب، بل بحقّك أيضاً. لم يكن الأمر سهلاً عليك خلال الأيام الماضية.

ابتلعت ريقها بصعوبة، وحاولت التفكير بالكلمات المناسبة لتقولها. وما أزعجها فعلاً هو عدم اكتراث لوكا باعتذارها الصادق، تابعت:

- لوكا، ما أحاول قوله هو....

- وفري كلامك لنفسك.

صاح بها بقسوة وتوجّه نحو السلالم.

- لوكا أرجوك.

استدار نحوها، ووجهه متعب ومنهك.

- أنا متعب يا فيليس. كنت أستيقظ في الخامسة فجراً كل يوم ولا أعود إلى المنزل حتى منتصف الليل. لا بدّ أنك تفهمين بأنني بحاجة لبعض النوم من وقت إلى آخر؟

رجته فيليسيتي:

- لا أريد التحدث عن آنا بل عنّا.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه:

- أنا واثق أنه يمكن تأجيل الحديث للغد.

بدت المسافة التي تفصل بينهما في السرير لا متناهية. تمنّت لو يستدير لوكا، ويمدّ يده نحوها وهو نائم كما كان يفعل دائماً...

حتى الآن...

مدّت يدها إلى كتفه وشعرت بتوتره حتى في نومه. تنهّد فأزاحت يدها

بسرعة كما لو أنه يطردها، وملأها شعور كبير بالأسى عندما ابتعد لوكا عنها، وعن حياتها.

استيقظ ما إن دقّ المنبّه، وقفز عن السرير بانضباط عسكري، في حين كان جسمه يتوق حتماً إلى بعض الراحة، وراقبته من خلال عينيها النعستين. أمضت الليل بطوله تتقلب وقد تملّكها ألم فظيع في معدتها.

قال وهو يربط ربطة عنقه:

- تبدين بحالة سيئة.

- لم أنم جيداً.

اعترفت فيليسيتي وقد قرّبت ركبتها من معدتها وتمنّت لو يزول الألم أو تتقيأ لترتاح، وأرادت البقاء بمفردها.

- لعل هذا سيشعرك بتحسّن.

ومد يده إلى حقيبته وناولها مجموعة من الأوراق وراقب نظرة التساؤل في عينيها واحمرار خدّيها، قال:

- إنها صكوك منتجع الغولف، لقد اصبح والدك المالك.

توقف عن الكلام للحظة، وظهر الحزن في عينيه، ثم أردف:

- إنه عقد ممتاز يا فيليس ولا يمكن خرقه. عمل المحامي عليه الاسبوع بكامله، لا أستطيع أن اغيّر رأيي وأنقض العقد.

أغرورقت الدموع في عينيها عندما رأته يقترب منها ويضع يده على خدّها.

- لم نسعد بعضنا البعض كثيراً صح؟ لقد تعبت من الشجار ومن رؤيتك حزينة هكذا، كسجينة، فأنا لم أتعمّد حصول هذا يوماً.

وأمسك بيدها فاضطرت إلى عضّ شفتها السفلى لتمنع نفسها من البكاء فيما تابع لوكا:

- لقد حصلت على ما تريدينه: خرج ماثيو من حياتك، وعاد المنتجع إلى والدك، وهذا حقّه.

- وماذا عنكَ؟

ضحك:

- أنا؟ بعد إذنك طبعاً سأقول لوالدتي أن محاولة زواجنا لم تنجح. سيجعلها هذا تتركني لحالي لبضع سنوات. إذاً أترين؟ لم يذهب الأمر سدى.

لقد انتهى كل شيء، انتهى، وقد ارتاح لوكا لذلك.

- ما قلته عن آنا....

بدأت فيليسيتي تقول، فأومأ لوكا وقاطعها:

- الأمر لا يتعلّق بآنا وحسب، وأنت تعرفين هذا في قرارة نفسك. أردت الحصول على تفاصيل ورفضت تزويدك بها، ولكنني لم أرَ من داع للبوح بكل شيء.

جلست مسمّرة ونظرت إليه بعينيها الدامعتين. أرادت أن تعانقه وتوقفه عن الكلام، عن وضع حدّ لزواجهما، ولكن يبدو أنه حضر خطابه جيداً، تابع:

- لم أرد قضاء وقت ممتع فقط. أو الحصول على عشيقة تضع خاتماً في إصبعها، بل أردت زوجة بكل ما للكلمة من معنى.

- ولكنني أريد أن أكون زوجتك.

رجته فأومأ نفياً:

- أنت تعرفين بأن ريكاردو بمثابة والدي، قلت لكِ هذا مراراً وتكراراً، ولكن هل قصدت المستشفى برفقتي؟ هل أمسكت بيدي ووقفت إلى جانبي؟ أعرف بأنك لا تحبين الذهاب إلى المستشفى لأنها تذكرك بأيام تعيسة، وبما حصل مع جوزيف، ولكنت ساندتك لو خطوت خطوة واحدة تجاهي، وبرهنت لي بأنك تهتمين لأمري.

- ولكنني أهتم لأمرك حقاً.

أصرّت فيليسيتي فلم يعر انتباهاً لكلامها.

- آنا ليست حبيبتي ولا عشيقتي. قلت لك هذا مراراً وتكراراً وترفضين أن تصدقيني. فيليس لا أستطيع أن أعيش هكذا، وأواجه نظرة الاتهام في عينيك كلّما تأخرت بضع دقائق عن المنزل. لقد فسّرت لكِ الأمور منذ لقائنا الأول، وظننتك تثقين بي. أعترف بأنني قلت لك كلمات قاسية، ولكن جاء ذلك في خضمّ الجدال، جدال استمريت بإشعاله وأنت تبعدينني عنك يوماً بعد يوم، أشعر بأنني لم أعد أعرفك، وبأنك تبتعدين عني أكثر.

وقف وحدّق إليها لوقت طويل ثم طبع قبلة على خدّها وتوجّه نحو الباب

- كلانا يستحق شيئاً أفضل يا فيليس، أنت تعرفين هذا تماماً كما أعرفه.

رؤيته يغادر ويبتعد ذكّرتها بمشهد التابوت يدفن في الأرض. أرادت أن تتمسك به، وترجوه ليمنحها فرصة ثانية، ولكنها عجزت عن ذلك. فبسبب الألم الحاد في معدتها وشعورها بالغثيان لم تستطع سوى أن تنزل عن السرير. أغلق الباب خلفه، وانهمرت الدموع من عينيها، ولم يكن الألم الحاد الذي تشعر به في معدتها يقارن بالألم الذي يعصر قلبها.

لقد خسرته. خسرت الرجل الوحيد الذي أحبته. وتضاعف شعورها بالغثيان لسماعها صوت المروحية تصطحبه بعيداً وغرقت في حزنها. راحت تتعرّق وأصبح الألم في معدتها حاداً لا يطاق. وشعرت وكأن عالمها قد تمزّق إرباً. وبالكاد وصلت إلى الحمام في الوقت المناسب.

١٠ - بالجرم المشهود

ثمة خطب ما.

غسلت فمها ونظرت إلى وجهها الشاحب في المرآة. لم يكن وجهها أحمر وبالرغم من ذلك تشعر بالحرّ. أغلقت عينيها وتمنّت لو تتوقف الغرفة عن الدوران، ولو تتنفس بطريقة طبيعية، ولو يزول الألم في معدتها.

لا يعقل أن تفقد طفلها. أصبحت الحياة الضعيفة التي تعيش في أحشائها في خطر. سيسهل عليها حتماً أن تقول للوكا بأنها تحبّه من دون أن تعقد حياتهما بوجود طفل، ولكن الطبيعة تلعب دورها الآن، وها هي فيليسيتي تخاف على طفلها وتحاول حمايته. جلست على الأرض وحاولت أن تحضن طفلها وهي تضع يديها على بطنها، وقد خفّ الألم قليلاً.

مع أو من دون لوكا، هذا الطفل هو كل شيء بالنسبة لها.

لم يكن طفل آل سانتانو فحسب، بل طفلها أيضاً، وفقدانه يعني فقدان روحها.

- سيدتي.

كانت روزا تقرع الباب وتنادي بصوت مرتفع وجاهدت فيليسيتي لتأخذ روباً وترتديه ثم تفتح لها باب الحمام.

- اتصل السيد سانتانو وقال إنه نسي حقيبته ويحتاج إلى بعض الأوراق منها لاجتماع في وقت الغداء، لذا سيأخذها زوجي إلى روما

ويتركها عند مكتب الاستقبال.

- حسناً.

بدا صوتها عادياً وهي تتناول الحقيبة عن الأرض.

- سيدة فيليسيتي، تبدين بحالة سيئة.

- هذا ما يقوله لي الجميع.

وابتسمت وتابعت:

- أنا بخير يا روزا، أعاني من ألم في معدتي ليس إلاّ، لا بدّ أنني أعاني من الغازات أو ما شابه.

- هل تريدينني أن أطلب الطبيب؟

تردّدت فهي تحتاج إلى طبيب، ولكن ليس بحضور روزا. يستحقّ لوكا أن يسمع الخبر منها أولاً.

- روزا، هلاّ طلبت من ماركو أن ينتظرني! سأستغرق خمس دقائق فقط، أريد الذهاب إلى روما بنفسي. إن كان لا يمانع أن يقلّني، فسأكون ممتنة!

- ولكنكِ مريضة.

قالت فيليسيتي بحزم:

- عليّ أن أرى زوجي، سأرتدي ثيابي حالاً.

بدت الرحلة طويلة للغاية، وقد اضطرت فيليسيتي إلى تحمّل الغثيان والابتسام لماركو الذي ينظر إليها مشككاً. كلّ ما تعرفه هو أن عليها رؤية لوكا، وإخباره الحقيقة. وقد يذهبان معاً إلى المستشفى ويواجهان حقيقة الطفل الذي لن يولد.

وفي طريقهما إلى هناك رأت النافورة الثلاثية، وفيما تمهّلت السيارة لدقيقة، توقّف قلب فيليسيتي عن الخفقان أيضاً.

- قطعة نقود واحدة للعودة، اثنتان للزواج من إيطالي، وثلاثة للعيش بسعادة مدى الحياة.

سمعت صوت جوزيف في فكرها. لم تستطع من قبل التفكير في تلك الأيام الأخيرة الحلوة والمرّة التي قضتها معه.

يا إلهي! كم تشتاق إليه!

- مرحباً.

سمعت صوت ماركو فعادت من عالم الأفكار لتجد نفسها أمام باب الفندق وقد فتح باب السيارة وظهر رجل يرتدي بذلة خضراء، إنه رافاييللو.

- صباح الخير سيدة فيليسيتي.

صاح رافاييللو وهو ينزل السلالم وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يحاول أن يأخذ منها الحقيبة.

- هذه مفاجأة سارة! اسمحي لي أن آخذ حقيبة السيد، سأوصلها له مباشرة.

- صباح الخير يا رافاييللو، ما من داع لذلك، سآخذها إلى لوكا بنفسي.

- لا مشكلة يا سيدتي. سأحضر لك بعض الشاي فالسيد سانتانو في اجتماع.

لم تبد ابتسامته طبيعية بل بدا مضطرباً جداً.

دخلا الردهة ولم تعد تثق به تماماً بل تشك بوجود خطب ما، وهو ينهال عليها بسيل من الأعذار.

- سأعلمه بأنكِ هنا وسينزل فوراً، ولكنه أوضح لي تماماً بأنه لا يريد أن يتم إزعاجه؟

- أحقاً؟

قالت فيليسيتي هذا بصوت هادىء ولكن صارم. لقد جاءت إلى هنا لمواجهة الحقيقة، ولكن يبدو من ردة فعل العاملين بأن الحقيقة أكثر تعقيداً مما تصوّرت. نظرت مباشرة إلى عيني رافاييللو وقالت:

- لا أريد شرب الشاي، شكراً. ولا أريد الجلوس والانتظار، يريد زوجي حقيبته وأنوي تسليمه إياها.

- ولكن يا سيدتي....

- أرجوك....

رفعت فيليسيتي يدها طالبة من رافاييللو عدم الكلام. عليها أن تواجه كلّ ما تحضّره لها الحياة. لقد سئمت الخدم الذين يحيطون بلوكا، وسئمت رفض لوكا عيش حياة طبيعية سهلة والتقيد بقواعد الأخلاق، قالت لرافاييللو:

- هذه ليست مشكلتك.

تجاهلت نظراته واتجهت نحو المصعد فرأت رافاييللو يشير إلى واحد من الموظفين ليجري اتصالاً هاتفياً. صعدت في المصعد الحديدي القديم الطراز وحضرت نفسها لما ينتظرها. مسكين رافاييللو، لا بدّ أنه سينضمّ إلى ريكاردو في وحدة العناية الفائقة.

ظنّت أنها حضّرت نفسها لِما ستراه، ولكن الألم غمرها عندما رأت هذا المشهد بشكل لم تتحضّر له.

- فيليس!

لم تستطع أن تنظر إليه، لم تستطع أن ترى الرجل الذي حطّم قلبها لتوّه. وعوضاً عن ذلك. جالت بناظريها في أنحاء الغرفة، فرأت باقات الورود، والشموع المضاءة، وسمعت صوت الموسيقى الرومنسية، وأخيراً نظرت إلى حيث يقف لوكا، وآنا بالقرب منه وما زال شعرها يتطاير لابتعادها بسرعة عن لوكا. ولكن ليس بالسرعة الكافية.

لقد طبعت صورة آنا بين ذراعي لوكا في ذاكرة فيليسيتي إلى الأبد.

قال رفاييللو بالإيطالية إنه حاول الاتصال، وراقبت فيليسيتي وجوههم وهي تترجم ما قاله:

- كان الأمر ليساعد لو لم يكن شريط الهاتف مقطوعاً. أنت محق يا

رافاييللو، لم يكن السيد سانتانو يريد أن يزعجه أحد.

- فيليس أرجوك.

أبعد آنا عنه واقترب منها بثانية، وأمسك بذراعها وأرغمها على النظر إليه:

- الأمر ليس كما يبدو، أخبريها يا آنا.

ونظر إلى عشيقته المحتالة ورجاها:

- أخبريها أنكِ خططت لكل هذا، أخبريها بأنني لم أكن أعرف شيئاً عما يجري....

- هيا يا لوكا.

عادت ابتسامة الخبث لترتسم على وجه آنا ولمحت في عينيها بعض الشفقة عليها، قالت:

- كان يفترض بفيليسيتي أن تعرف عاجلاً أم آجلاً. أنا واثقة من أنها ستتفهّم هذا مع الوقت.

- افهم هذا!

جاءت كلماتها كرصاصة لتمزق الشعور بالشفقة الذي ترميها به:

- يمكنكِ الحصول عليه يا آنا، وأنا لم أكتشف الأمر الآن، فقد عرفت منذ البداية. والغلطة الوحيدة التي ارتكبتها هي تصديق لوكا عندما أخبرني كم تغيّرت، ولكن أظن بأن الرأي الأول الذي كوّنه عنك هو الأصح.

- وما هو هذا الرأي؟

واستدارت نحو لوكا والشك يملأ عينيها، فأجابتها فيليسيتي:

- أظن بأنه قال لي بالإيطالية إنك فاسقة.

واستدارت متجاهلة نداءات لوكا وضحكت لردة فعل آنا وغادرت.

أمسك بها عند المصعد، قال:

- فيليسيتي، لقد أسأت تفسير ما يجري.

صاحت:

- لا، لم أفعل. قلت لي إنها تغيّرت، وبأنك تصطحبها إلى المستشفى كلّ صباح لتجلس مع زوجها وتأمل أن يعيش، وانظر إلى ما كان يجري. يا إلهي! لقد أصريتُ على أن تقلّها إلى المنزل تلك الليلة، لا بدّ أنكما سخرتما مني كثيراً في السيارة. مسكينة فيليسيتي، لا تعرف ما يجري. لقد وثقت بك يا لوكا، وثقت بك، وانظر إلى أين أوصلتني هذه الثقة!

- لم تثقي بي يوماً!

غمرتها نوبة من الغضب فدخلت المصعد الحديدي المشبك وضغطت على الزر لتنزل إلى الطابق السفلي.

صاح مجدداً:

- لم تثقي بي يوماً، ولا للحظة واحدة، ولكن عليكِ أن تثقي بي الآن!

- لماذا؟ حتى تذلني مجدداً؟ حتى تتابع علاقتك الغرامية كما يحلو لك؟ انسى الأمر يا لوكا! فأنا لن أكون أبداً عشيقة ترتدي خاتماً في إصبعها!

- أخرجي من هذا المصعد الآن.

جاء صوته عالياً، ولكن ملؤه الترجي وأوشكت فيليسيتي على العودة لشدة الألم الذي بدا في صوته. بدأ المصعد يتحرّك وينحدر ببطء، ولعلّ ما يجري هو الأفضل. فما الجدوى من سماع المزيد من الأكاذيب، والتألم أكثر فأكثر؟ بقي أمر واحد عليها أن تقوله له، كلمات ثلاث تبرهن له عن مدى ألمها، ليعرف مقدار الألم الذي سبّبه لها.

- أحببتك يا لوكا، أحببتك منذ البداية! وانظر إلى ما جرى!

تردّد صدى كلماتها عبر المصعد.

صفع الحديد وتمنى لو يستطيع إيقاف المصعد بيديه وإعادتها إليه. وعوضاً عن ذلك تمسك بالبوابة لثانية أو اثنتين وهو يفكّر بكلماتها الأخيرة.

هذه المرأة المتقلّبة التي شاركته سريره، وتسلّلت إلى حياته وهي ترتدي فستاناً ضيقاً، أحبته، أحبّته فعلاً.

- لوكا؟

اقتربت منه آنا، لكنه بالكاد تعرّف إليها، ولم يتحمل أن يكون غاضباً منها. لم يعد شيء يهمّه الآن، لا شيء.

- ما جرى لصالحك صدقني، فيليسيتي ضعيفة جداً بالنسبة لك، ضعيفة جداً بالنسبة لشخص من آل سانتانو. ستكون بخير.

ولكن عندما استدار لوكا ورأت آنا مدى تحطمه، واستيائه، وسمعت صوته ضعيفاً ومنهزماً، شعرت وللمرة الأولى في حياتها بالذنب والعار وهي تشاهد الرجل الذي تعشقه ينهار أمام ناظريها.

همس:

- يمكن أن تكون بخير، ولكن هل سأكون أنا بخير؟

١١ - مدينة العذاب

ركضت في الشوارع الضيقة، وراحت تصطدم بالمارة غير آبهة بنظراتهم. لم تكن تعرف إلى أين تتجه بل راحت تهيم على وجهها.

دخل الهواء إلى رئتيها، وشعرت بالمطر البارد على وجهها الملتهب وعندها فقط عرفت مكانها.

إنها قرب النافورة الثلاثية. رأت تمثال نبتون يقف شامخاً تماماً كما تركته منذ نحو عام، والماء ينهمر، وقطع النقود في الأسفل، والماء الذي يرمز إلى استمرارية الحياة والعودة المؤكدة إلى هذا المكان. أمّا فيليسيتي، فلم تر في الماء سوى العذاب، وتساءلت كيف يعقل لمدينة بهذا الجمال أن تسبّب لها كل هذا الأسى، وكيف عساها تلوم مكاناً على أخذه أعزّ ما على قلبها.

أخوها، وزوجها...

وفيما وضعت يدها على معدتها، وشعرت بالألم الذي راودها في الليل يعود بقوة أكبر، عرفت فيليسيتي أن المدينة قد رمتها بالضربة القاضية، وبأن الطفل الذي بدأت تتعلّق به سيكون الضحية الأخيرة.

سمعت صوت جوزيف يرن في أذنيها وهي تقع أرضاً، صوته يتكرّر في رأسها وهي ترى نظرات الناس من بعيد، تسمع صراخهم، وصوت صفارات الإنذار.

- علي أن أطلب إعادة مالي.

لم يفهم المسعفون ما تقوله بل قالوا بأنها تهلوس ووضعوها في سيارة

الإسعاف.

راحت تغيب عن الوعي تارة وتستعيد وعيها طوراً، لم يعد شيء يستطيع إيذاءها الآن. ولا حتى قراءة لافتة غرفة الطوارىء وهم يدخلونها عبر الرواق الطويل. كانت رائحة قناع الأوكسيجين غريبة، ولكن حزنها غريب أيضاً إذ لم يعد شيء يهمّها.

لا شيء يهمّها بعد الآن.

www.elromancia.com

١٢ - أما من أمل بعد؟

كان وسيماً...

هذه العبارة الأولى التي فكّرت فيها فيليسيتي وهي تفتح عينيها التعبتين وجاهدت كيلا تغلقهما مجدداً وتستسلم لتأثير المخدّر.

كان يغفو على كرسي قرب السرير، ولكنه لم يكن مرتاحاً. فملامحه تغطيّها الخطوط وذقنه قد نبتت قليلاً. نظرت إلى الأسفل، فرأت يده تمسك بيدها وتتجنب أصابعه أن تلمس المصل.

بدا وسيماً كما كان عندما رأته للمرة الأولى، منذ بضعة أسابيع، ولكن علاقتهما الآن أعمق بكثير مما كانت عليه عندها.

ولكنها لم تندم على ما جرى، فمازالت تبرّر له تصرفاته. فتلك الأوقات التي قضتها بين ذراعيه، والدفء الذي غمرها به، عندما كان ويأخذها بين ذراعيه، جعلها تظن بأن لوكا قادر على إصلاح كل شيء.

- فيليس؟

قرّب وجهه القلق منها. كان قد فكّ أزرار سترته وراح ينظر إليها، فلمحت آثار أحمر شفاه آنا على قبة قميصه وتذكرت ما جرى فأشاحت بنظرها بعيداً، وأساء تفسير ألمها.

- خذي اضغطي على هذا، فيزول الألم.

ما من شيء قادر على إزالة ألمها، أوشكت أن تقول هذا، فالأدوية واضطراب المشاعر مزيج قاتل، ولكنها ما زالت تحتفظ بكبريائها، ما زالت تحتفظ بجزء من نفسها لن يستطيع لوكا سانتانو تدميره أبداً. وعوضاً

عن النظر إليه، جالت بنظرها في أرجاء الغرفة، فأزعجتها إلفة المكان.

لا بدّ أن الغرف جميعها متشابهة، فلم عساها تفكر بأن هذه هي الغرفة نفسها التي توفي فيها جوزيف؟ وبأن الستائر البيضاء والطاولة الخشبية البنية تذكّرها بخسارتها؟

الخسائر!

تذكرت الطفل، تلك الحياة الصغيرة التي لم تلتقها يوماً، ولم تردها عمداً. ولكنّها الآن قد ذهبت، وتألمت فيليسيتي لفكرة فقدانها طفلها.

طفلها...

اغرورقت الدموع في عينيها، دموع حارقة لفقدانها حياة غالية على قلبها إلى هذا الحدّ. عندما وضع لوكا الزر في يدها، أبعدته. أرادت أن تشعر بالألم واحتاجت لذلك كي تتذكر خسارتها.

- أنا آسف.

يا لتفاهة كلماته واعتذاره في حين قد توفي ابنهما!

استطاعت أن تتنشق رائحته لكنها لم تنظر صوبه، قال بلطف كي لا يضايقها أكثر:

- كان علي أن أصغي إليك. لم أستطع أن أفهم لِما لا تشقين بي وتصرّين على وجود علاقة تربطني بآنا.

- لم تستطع أن تفهم!

كانت هذه الكلمات الأولى التي قالتها وجاء صوتها أجش مليئاً بالعواطف، تابعت:

- كيف عساك تقول هذاوقد كنت تكذب عليّ طوال الوقت؟ أكان يفترض بي أن أقبع في زاوية ما، وأغضّ النظر عن العلاقة التي تقيمها مع عشيقتك؟ أهذه هي اللغة التي تفهمها؟

- منذ افترقنا أنا وآنا، لم نقترب أبداً من بعضنا.

- وفر كلامك لنفسك يا لوكا.

ضغطت على الزر الآن. إنه ألم لن يشفيه الطب الحديث، فألم القلب شائع وما من دواء فعّال. قالت:

- رأيتك متلبساً بالجرم المشهود، لا تحاول إنكار هذا. كان موظفوك يعرفون. أوشك رافاييللو أن يتعرّض لنوبة قلبية وهو يحاول تحذيرك بأن زوجتك صاعدة إليك، ومع ذلك تجرؤ على الجلوس هنا وإخباري بأنك لا تقيم علاقة معها.

للمرة الأولى لم يثر، ولم يبادلها الغضب. بل أزاح الزر عن يدها، ثمّ وضع يده بيدها الباردة:

- عليكِ أن تستيقظي لتسمعي ما سأقوله. ستصغين إليّ وسوف تصدقينني، لقد كنت ساذجاً.

استدارت لسماعها هذا الرجل القوي الواثق من نفسه يقول مثل هذا الكلام.

- إلى أن التقيتك، لم أشعر يوماً بالغيرة، لم أعرف هذا الشعور يوماً إلى أن عرفتك.

شدّ بيده على يدها، ولكن ليس برقة:

- عندما فكّرت بكِ وبماثيو، عندما تخيلتكما معاً، شعرت برغبة في التقيؤ، ولم أعرف السبب. لم أفهم بأن ما اختبره هو الغيرة، الغيرة نفسها التي تشعر بها آنا. وبالرغم من أنه لم يمض وقت طويل على تعرّفي إلى الغيرة، بدأت أفهم كم تدفع المرء للتصرّف بطرق غريبة. في اليوم الأول للقائنا عندما طالبت بالحصول على فستانك لتعودي إليه، عرفت بأن عليّ منعك من ذلك. وكنت لأفعل أي شيء لمنعك، أي شيء، وهذا ما كانت آنا تقوم به. فقد ظننت أنها إن أخبرت الجميع بأنها على علاقة بي، إن عرف عدد كاف من الأشخاص، بمن فيهم أنتِ، بأننا على علاقة، فقد تصبح رغبتها هذه حقيقة. لقد حضّرت الأمور بأدق تفاصيلها، وحرصت على زرع الفتنة فيما بيننا ثم انقضت على فريستها ولكني ما كنت

لأقع في شباكها أبداً.

«عندما دخلت غرفتي في الفندق، استشطت غيظاً، وأدركت كم كنتِ محقة بشكّك، وكم حسبت آنا الأمور بأدق تفاصيلها. طلبت منها أن تخرج، ورفضت تقبّل الأمر، وظلت ترمي بنفسها عليّ، وترجوني لأعيد التفكير بالأمور، وعندها دخلت أنت.»

كم أرادت أن تصدّقه، ولكنها كانت خائفة جداً من تقبّل القصة وتصديقها.

قال لوكا بلطف:

- وجب عليّ أن أكره آنا، ولكنني أشفق عليها وأفهم دوافعها، وكم يمكن للغيرة أن تدفع المرء للتصرّف بغرابة، وتفقده الحس بالمنطق وتجعله يتهور في التصرف.

- كالطلب من امرأة غريبة الزواج.

- ظننت أنني إن تزوجت بك، وأحببتك، وأخبرت العالم بأسره أنك زوجتي فقد ينتهي بك الأمر يوماً بأن تحبينني. أحبك فيليس!.

- تذكر بأننا اتفقنا على عدم الإدلاء بتصريحات كاذبة.

وأزاحت يدها ونظرت إلى السقف، فهي لن تقبل شفقته. وضع يديه على وجهها لتستدير نحوه.

- كيف عساه يكون تصريحاً كاذباً إن كان نابعاً من القلب؟ أحبك. وقد أحببتك منذ اليوم الأول الذي وقعت فيه بين ذراعي ورحت تبكين. عندما صرخت وأنت نائمة، وجئت أنام بقربك، عرفت لحظتها أنني لم أعد أريد أن أفلتك. كنت بالكاد أعرفك، ومع ذلك كنت مستعداً للقيام بأي شيء لإبقائك معي. أنت محقة، لقد منعتك من الدرس، وأجّلت الحديث مع المحامي، ولكن فقط لأنني عجزت عن تحمّل فكرة فقدانك. لم أحتمل أن أراك تغادرين حياتي قبل أن تبدأ حياتنا.

استلقت تصغي إلى كلماته بتمعّن.

كان هذا الرجل القوي، والوسيم يقول لها ما احتاجت إلى سماعه، لوكا سانتانو يحبها.

وكان على هذا أن يساعدها، لكنه لم يفعل. فامتناعه عن البوح بحبّه في السابق جعلها تفقد طفلهما.

لقد تلاشى الأمل الذي لاح أمامها لفترة. استلقت على الوسادة البيضاء، وأغلقت عينيها، وأبعدت يدها عن يده.

يبدو الحبّ تعويضاً صغيراً مقابل خسارتها.

- كنتِ تعرفين عن الطفل صح؟ ولهذا السبب كنت مريضة و....

أنهت فيليسيتي العبارة عنه.

- صعبة المراس. لم أخف يوماً في حياتي، ولم أشعر يوماً بأنني مريضة إلى هذا الحدّ ولم أعرف ما عليّ فعله، وكيف أستطيع إخبارك.

قال من دون أن ينتقدها:

- يا ليتك فعلت! فأنا لست مخيفاً إلى هذا الحد.

تنهدت:

- بلى، ولكنني أحبك بالرغم من هذا. وقد أوضحت لي منذ البداية بأنك لا تريد إنجاب الأولاد.

وافقها لوكا الرأي:

- لم أرد إنجاب الأولاد. بصراحة، لم أكن أعرف لما يثير الناس كل هذه الجلبة حولهم. لقد راقبت بعض أقاربي وأصدقائي يتحوّلون من رجال أعمال ناجحين إلى أهل مضطربين، يتناقشون حول أمور عاطفية خاصة بالأطفال، وعن طرق الرضاعة الأفضل. وبعدها جئتِ، ورحت أتساءل إن كنت ستنجبين أطفالاً شعرهم أشقر أو أسود، ويتحلّون بطبعك المتحفظ أو بطبعي الغاضب. ولكن كيف عساي أقول لكِ هذا؟ كنت متأكداً من أنكِ ستهربين، وستضحكين عليّ. واضطررت للتصرّف بحذر شديد كيلا أخيفك.

كان يمسح دموعها بإصبعه ولكنه لم يستطع مجاراتها لكثرة الدموع التي انهمرت من عينيها. كان يحاول أن يهدىء من روعها، وتاقت لتلمس خدّه وتضمه وترتاح بين ذراعيه، ولكنها لم تستطع.

- نحن نفهم بعضنا الآن وهذا هو المهم.

- لا، يا لوكا.

علقت كلماتها في حنجرتها وجاهد ليطمئنها.

- ستتعلم من تجربتنا ونسير قدماً. قد يبدو الأمر صعباً الآن، ومخيفاً أيضاً، ولكن مع الوقت ستدركين أن ما جرى كان لصالحنا.

- لصالحنا!

نظرت إليه كما لو أنها تراه للمرة الأولى وصاحت:

- كيف يمكنك أن تقول هذا؟ كيف يسعك نسيان أمر طفلنا بهذه البساطة؟ ولكني أظنك تملك خبرة في هذا الموضوع. أخبرتني آنا بأنك طلبت منها أن تجهض عندما ظنت نفسها حاملاً....

اسودّ وجهه، وتسمّر في مكانه.

- لم أفعل هذا يوماً!

- سيدتي!

وقفت ممرضة بهية الطلعة قرب السرير وهي تبتسم.

استلقت فيليسيتي في مكانها ولاحظت نفاد صبر لوكا، فيما أخذت لها الممرضة ضغطها، وحرارتها.

كرّر ما إن أصبحا بمفردهما مجدداً:

- لم أفعل هذا يوماً! يستحيل أن تكون قد حملت مني، لقد اهتممت بالأمر، وحرصت على ألا يحصل هذا.

- لم تلزم حذرك معي! لم تتوقف لتفكر في عواقب رغبتك الجامحة!

- لأن الحب والجنس أمران مختلفان تماماً.

تفاجأت للتفسير الذي تقدّم به، وللطريقة التي لخّص بها ما جمع

بينهما.

- لقد أحدثت آنا الكثير من الضرر وروت الكثير من الأكاذيب، فإن كان من أمل لنستمر نحن الثلاثة، فعلينا أن ننسى ما قالته، وعلينا....

- نحن الاثنان.

لقد اعتادت أن تصحح انكليزية لوكا ولكن هذا الخطأ ليس كغيره.

- نحن الثلاثة.

جلس لوكا وعيناه لا تفارقانها، ومرّر يده بلطف على معدتها من تحت الملاءة البيضاء. لم تتألم عندما لمسها كما توقّعت. بل شعرت بنوع من الأمان والدعم، وارتخت عضلاتها المشدودة تحت رقّة لمسته.

- ما زال الوقت مبكراً، مبكراً على القيام بوعود لن نفي بها. ما زال الوقت مبكراً للتحدث عن الأطفال في حين كل ما أريده هو هذا الطفل.

- وهذا ما أريده أيضاً.

ما زال يضع يده برقة وحنان على معدتها، وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهه، ابتسامة أكثر سحراً من صباح موسيرالو. وفجأة شع الأمل في داخلها قبل أن يتكلّم لوكا فيقول:

- مِمّ تعانين برأيكِ يا فيليس؟

جاهدت لتنطق بهذه الكلمة البشعة:

- من إجهاض. عندما أحضروني إلى المستشفى قال الطبيب بالإيطالية حالة من الإجهاض، لم أحتج إلى ترجمة لأفهم كلماته. ووقّعت بعدها على استمارة الموافقة على....

- قال الطبيب: إمكانية حصول إجهاض.

ابتسم من قلبه فانتقلت عدوى الابتسام إليها وتابع:

- لقد انفجرت الزائدة لديك يا فيليس. كنت مريضة، وقد قلقنا عليكِ وعلى الطفل طبعاً، ولكن هذا كل ما في الأمر. الطفل بأمان.

لقد عرف ما عانت، وعرف بأن شكّها لا ينعكس أبداً على حبّها له،

وأدرك كم تألمت إلى حدّ أنه لم يعد لكلماته التأثير ذاته.

همس وهو يقبلها على خدها:

- انتظري هنا.

- لا أملك خياراً آخر.

عاد بعد لحظة مع الممرضة التي تبتسم لها بلطف. رفعت الممرضة عنها قميص النوم، ووضعت لها مرهماً على بطنها فيما أمسك لوكا بيدها، وسألها:

- أتصدقينني الآن؟

أرادت أن تجيبه وتقول نعم، ولكن الدموع انهمرت من عينيها فيما لمست الشاشة بيد مرتجفة تحاول الإمساك بالمستقبل، وبكلّ أحلامهما وآمالهما المجسّدة أمام ناظريهما.

- إنه صغير جداً.

قال لوكا هذا وهو ينظر متعجباً إلى الشاشة.

حدّقت إليه، إلى الرجل الذي يحبّها وينظر إلى الطفل الذي سيحبانه معاً.

١٣ - نبدأ من جديد

- أصبح جو مدلّلاً جداً.

فيما كانا يسيران تحت أشعة شمس الغروب الحمراء، وينظران إلى نوافير المياه التي تبعث الحياة في منتجع الغولف وتروي العشب الأخضر، سرّت فيليسيتي لأن الشمس سمحت لها بارتداء النظارات الشمسية. وأعطتها بذلك عذراً لتخفي الدموع التي تملأ عينيها كلما غادرا أوستراليا. إنها لا تشتكي طبعاً، فكلما شعرت بالحنين إلى منزلها، يسارع لوكا إلى حجز بطاقات السفر واصطحابها لرؤية أهلها.

ابتسمت:

- لا يصبح طفل في شهره السادس مدللاً، كل ما في الأمر هو أن والدي يستمتع بوجوده معه.

لف يده حولها، فشدت على يده ممتنة.

تنهد لوكا:

- أتمنى لو كنت أجيد هذه اللعبة أكثر. سخر والدك مني حين قلت هذا، ولكنني سأحسّن من أدائي حتى ولو كان هذا آخر ما أقوم به.

لم تصحّح له كلامه، بل ارتسمت ابتسامة على ثغرها لتذكّرها شكل والدها ولوكا على ملعب الغولف. ريتشارد أستاذ ماهر في لعبة الغولف، ويسخر من طرق لوكا المبتدئة والتقليدية في اللعب. لقد تحسنت أوضاع المنتجع، ومن الجميل رؤية ريتشارد يبتسم بعد أن عانى سنوات أليمة، وها هو يتعرّف أكثر إلى صهره وهما يلعبان الغولف، ويشربان القهوة

اللذيذة بدلاً من الشاي، ويتسامران ليلاً حول كرة القدم، والغولف، وغيرها من الأمور العزيزة على قلب الرجال.

- أتعرف؟ بعد وفاة جوزيف، لم أظن يوماً بأن والدي سيفرحان، أعني يفرحان فعلاً. كل ما توقعته هو شعورهما بالرضى، ولكن رؤيتهما مع جو....

قال لوكا برقة:

- إنهما سعيدان، طبعاً سيظلان دوماً حزينين قليلاً، ويفتقدان إلى جزء أساسي من حياتهما، ولكن جو جاء بمثابة هدية لنا جميعنا، أكثر بكثير ممّا قد نتصوره يوماً.

إنه محق طبعاً! لم تعد فيليسيتي تشعر بالغثيان بعد أن استأصلوا لها الزائدة، واستمتعت بأشهر الحمل الستة المتبقية، فدلّلها زوجها، وأحبّها، وغمرها بحنانه. دخل جو حياتهما بعد مخاض طويل، ومنذ ذلك الحين وهو يعوّض عن الوقت الضائع، ويبتسم للعالم، ويسحر كل من يقترب منه بابتسامته الساحرة وشعره الأسود المجعد، وبشرته السمراء، وعينيه القادرتين على إذابة أقسى القلوب.

-لنلق التحية على الجيران.

عبست فيليسيتي فيما بدأ لوكا يسير نحو هدف معيّن متجهاً نحو مكان مجاور للمنتجع. كان الحقل مليئاً بالكروم والمنزل بحاجة إلى الكثير من التصليحات ولكن مالكي المنزل عجوزان جداً وتعبان، وهما بالتالي عاجزان عن تصليحه. خبأت انزعاجها. كان يفترض بهذه النزهة أن تريح أعصابها قبل أن يحين موعد حمام جو، الذي سيليه العشاء الوداعي مع والديها، لا أن تكون مناسبة للتعرّف إلى الجيران.

- يبدو أن لا أحد في المنزل.

عبس لوكا وهو يطرق الباب الكبير وينظر عبر النافذة المليئة بالغبار.

تنهدت فيليسيتي:

- لعلهما في المنتجع، يقصد الكثير من أبناء المنطقة المكان للعشاء بعد أن استعاد نشاطه، آه، أنظر!

وابتسمت عندما رأت طاولة موضوعة على الشرفة وعليها ركوة وفنجاني قهوة. تابعت:

- آمل أن نبقى رومنسيين هكذا عندما نبلغ الثمانين من العمر.

- سنكون كذلك.

طمأنها لوكا وابتسم.

- تخيّلنا نجلس هنا بعد خمسين عاماً، نشرب القهوة، ونشاهد أحفادنا وأولادهم يركضون من حولنا.

- حذار ممّا تمنيته.

نظرت إلى الأعلى وقالت مازحة:

- لم أقصد هذا المكان، فأنا مسرورة في موسيرالو، كل ما في الأمر هو أنني لم أعرف بأن آل موري رومنسيون هكذا.

قال لوكا وهو يمسك ركوة القهوة ويسكب فنجانين:

- نعم، إنهما رومنسيان جداً. لقد قرّرا بيع المكان والانتقال إلى منتجع في كوينزلاند. يريدان الحصول على حوض سباحة من دون القلق بشأن تنظيفه، وشرب القهوة من دون الاضطرار للقلق حول صنعها، ومنزل لا يقلقان بشأن تنظيفه. يريدان أن يستمتعا برفقة بعضهما البعض ليس إلاّ.

نظر إلى وجهها الذي تعلوه علامات الاستغراب، ثم قادها لتجلس إلى كرسي.

- سأسلّم سلسلة الفنادق إلى أخي.

ولفترة طويلة من الزمن لم يتابع الكلام بل جلس يتأمل المنظر الطبيعي، والشمس تنحدر عند الأفق، وترسل خيوطها على الكرم، وهبّ نسيم عليل يلطّف الأرض الحارة.

- لم أعد أستطيع الاستمرار على هذه الوتيرة، والاستيقاظ كل صباح في السادسة صباحاً والعودة بعد العاشرة مساء، في حين أنني لا أريد سوى أن أبقى معكِ ومع جو. أعرف كم يصعب عليكِ أن تتركي أهلك، وأعرف بأنكِ لم تتذمري يوماً من ساعات العمل الطويلة التي أقضيها بعيداً عنكِ، ولكنني أعرف بأنك تتألمين لذلك.

وأخيراً تجرّأ على النظر إليها، وارتاح لرؤيتها تبتسم. قال:

- لن نتضوّر جوعاً، سأبقى رئيس مجلس الإدارة، ولكن هذه المسؤوليات كلها كثيرة ليتحمّلها شخص واحد، وبدأنا نغفل عن أمور كثيرة، فانظري ماذا حل بوالدك....

قاطعت حديثه:

- لوكا، لست مضطراً للاعتذار باستمرار حول ما جرى. لم ترتكب أي خطأ، كما أن الأمر قد انتهى الآن. فوالدي الآن أكثر سعادة ممّا حلمت به يوماً، ولست مضطراً للتخلي عن مهنتك لإسعادي، فأنا لست معتمدة عليك إلى حدّ أنني أعجز عن تسلية نفسي بمفردي.

- أعرف هذا، وأتمنى أحياناً لو يكون العكس صحيحاً.

- أحبك يا لوكا، أحب البقاء معك، والزواج بك، ولكنني لن أتقوقع في زاوية ما إن لم تعد إلى المنزل في تمام الخامسة عصراً.

- ولكنك تشتاقين إلى أهلك.

اعترفت:

- نعم، ولكنني أراهما من وقت إلى آخر.

- أتذكرين عندما تزوجنا وكنّا على متن الطائرة وقلت لكِ إنني لن أؤذيك أبداً؟

أومأت فيليسيتي إيجاباً، وتابع:

- أنت تتألمين كلما سافرنا من هنا، وأنا أتألم لألمك. أتفهم بيئتك والطريقة التي تربيت فيها وما من داعٍ لتخجلي لأنك ترغبين بالبقاء قرب

أهلك، فهذه صفة من أهم صفات الايطاليين، لذا أفهمك تماماً.

- وماذا عن عائلتك؟ إن استقرينا هنا ألن تستاء والدتك؟

تنهد لوكا:

- سنذهب إلى المنزل ونرى والدتي بشكل مستمر. على كل حال، ثمة المئات من أبناء آل سانتانو وأولادهم من حولها يشغلونها. من الجميل أن يكون جو الحفيد الوحيد المدلل من قبل أهلكِ. يمكننا إنجاح هذا الأمر يا فيليس بفضل مهاراتي الإدارية ومهاراتك المالية. لقد علّمني ريكاردو الكثير عن قطاف العنب وتصنيعه على مر السنين، وقد ناقشت الأمر معه وهو مستعد لإسداء النصح لي متى احتجته، فبحسب ما قاله الأطباء عندما عاينوه آخرمرّة، سوف يعيش بعد نحو عشرين عاماً أو أكثر.

- يتعيّن على آنا أن تنتظر طويلاً لتحصل على الميراث إذاً.

ورجعت إلى الخلف وتوقفت عن الابتسام عندما رأت تعابير وجه لوكا تغدو أكثر جدية.

- أظن فعلاً بأننا قادرين على إنجاح هذا.

همست فيليسيتي:

- وأنا أيضاً.

وبدأت الأحلام والمشاريع ترقص في عقلها. راحت تنظر إلى الأرض المألوفة بالنسبة لها بنظرة جديدة، وتخيلت جو وإخوته وأخواته الذين لم يولدوا بعد يركضون على الشرفة، ولوكا بقربها يوماً بعد يوم...

يواجهان المستقبل معاً يداً بيد.